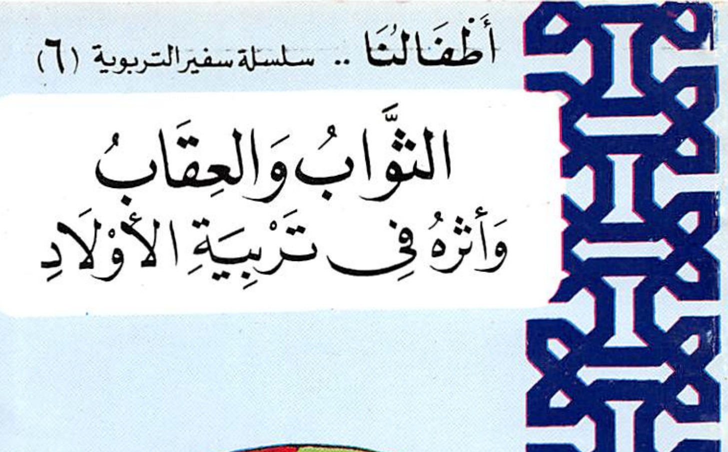


أطفالنا .. سلسلة سفير التربوية (٦)

الثَّوابُ وَالعِقَابُ وَأثرُهُ فِي تَرْبِيَةِ الأوْلَادِ

محمود اسماعيل

سفير

أطفالنا ... سلسلة سفير التربوية

سلسلة تهدف إلى تعريف الآباء والمربين بالمشاكل التى تواجه الأطفال ، وكيفية التغلب عليها من الناحية العلمية والتطبيقية ، وذلك بطرح القضايا والموضوعات التى تهم كل مربّ ومناقشتها بموضوعية وأمانة فى ضوء المنهج الإسلامى دون افتعال .

كما تقوم السلسلة بعرض نماذج لمشكلات حقيقية من واقع الحياة ، ومعالجتها فى إطار ماورد فى النظريات التربوية والنفسية والإجتماعية بما يعين المربى المسلم على تنشئة أجيال مسلمة .



سفير ٥ شارع جزيرة العرب - المهندسين - القاهرة - ص.ب: ٤٢٥ الدقى
ت: ٣٣٧٩٧٥٢- ٣٣٥٣٧١١- ٣٣٥٣٧١٢- ٣٤٩٤١٣٩ فاكس: ٣٤٨٠٢٩٩

أطفالنا .. سلسلة سفير التربوية

(٦)

الثواب والعقاب

وأثره فى تربية الأولاد

تقديم

أ.د. حسين عبد العزيز الدرينى

أستاذ علم النفس وعميد كلية التربية - جامعة الأزهر

تأليف

د. أحمد على بديوى

كلية التربية - جامعة حلوان

٥ ش جزيرة العرب - المهندسين - القاهرة. ص.ب: (٤٢٥) الدقى

فهرست

رقم الإيداع : ١٩٩٣/٥٤٧٤

ترقيم دولي: 4 - 222 - 261 - 977

تقديـــم

لقـد حـثنا ديننا الحنيف على أن يكون كـل راع مسئـولاً عن رعيتـه ، فـالحاكم راعٍ لمحكومـيه والـزوج راعٍ لزوجتـه ، والأب راعٍ لأبنائه . ولكى يضطلع كل راعٍ بمسئوليته عليه أن يقوم بأدوار معينة ومـهامٍ محددة . ولما كان الأب والأم راعـيين لأبنائهما فإن عـليهما مـسئوليـات معينة ، عليهـما حسن اخـتيـار اسم الابن ، وعليهمـا تنشئـته تنشـئة سليمـة، وتربيتـه تربية قويمة.

والتنشئـة كعمـلية اجتـماعيـة تؤدى إلى تطبيع الطفل تطبيعًا اجـتماعـيًا يكسبه إنسـانيته ، ويزوده بالقيم والأوامر والنواهـى الأخلاقية والاجتمـاعية التى من دونها لا يستقيم عوده ولا تنصلح حيـاته . ويُعتبر الثواب والعقاب أحد الأركان الأساسية فى عملية التنشئة ، من هنا تجىء أهمية هذا الكتاب.

وقـد بذل المؤلف جهـدًا كبيـرًا فى توضيح وتبـسيط المـفاهيم النفـسيـة المرتبطة بموضـوع الثواب والعـقاب ، وفى إبـراز المضامين التـربوية فى تلك المفاهيم لكـى تكون هادية ومرشدة للآباء والمعلـمين . وفى محاولتـه الجادة أوضح كيف تضمَّن ديـننا الحنيف العديد من تلك المبادئ ، وكيف وضـعها وصاغها كموجِّهات لعملية التنشئة النفسية والتربوية والاجتماعية للأبناء .

يتضمن الكتاب بين دفَّـتيه توضيحًا لمفهـوم الثواب والعقاب من منظور

التربيـة الإسلامية ، ووضعـه فى إطار طرق التربية الإسـلاميـة وأساليبـها ، وعمـد المؤلف بعد ذلك إلى توضيح دور السـبق لعلماء المسلمين فى مناقـشة قضـية الثواب والعـقاب وتطبيـقاتها التـربوية فى سلوك الآباء والأبناء ، ثم أوضح مفهوم الثواب والعقاب فى ضوء نظريات علم النفس المختلفة .

وحتى يتـضـح الأمـر أمـام القـارئ عـرض المؤلف لأسـاليب التنشـئـة الاجتمـاعية للطفل ولاتجاهاتها المختلفة ، مـبرزًا الجوانب السلبيـة والجوانب الإيجابية منهـا ، وعرض لدور الثـواب والعقاب فـيهـا وفى النمو النـفسى للأبناء .

وأخـيـرًا ولإبراز الجـانـب التطبـيـقى والإرشـادى للأبنـاء تناول المؤلف بالتوضيح الثواب والعقاب فى مجـال الأسرة والمدرسة والمشكلات النفسية للأطفال .

والكتـاب كـمـحاولة لـتبـسـيط قـضـية جـوهرية فـى مجـال التنشـئـة الاجتمـاعية والتربيـة الإسلامية يُعتـبر ذا فائدة قيّـمة للمشتغلـين بأمور تربية الأطفال والأبناء تربية إسلامية سليمة وقويمة .

والله من وراء القصد وهو الهادى إلى سواء السبيل .

أ.د. حسين عبد العزيز الدرينى
أستاذ علم النفس التربوى بجامعة الأزهر

مفهوم الثواب والعقاب فى التربية الإسلامية

إن مبدأ الثواب والعقاب من المبادى التربوية الأساسية التى يضع لها الإسلام اعتبارًا كبيرًا . ولولا هذا المبدأ لتساوى المحسن والمسىء ، قال تعالى : ﴿وما يستوى الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسىء قليلًا ما تتذكرون﴾

ومما قاله «هارون الرشيد» لمؤدِّب ولده «الأمين» :
«ولا تمعن فى مسامحته ؛ فيستحلى الفراغ ويألفه ، وقوِّمه ما استطعتَ بالقرب والملاينة ، فإنْ أَبَاهُما ؛ فعليك بالشدة والغلظة» .

لذلك يجب اختيار المبدأ الملائم فى الثواب والعقاب ؛ حتى لا يحدث نفور أو تهاون من الأطفال ، وحتى يسهل تشكيلهم وفق مبادئ الخُلق والدين .

النزوع إلى الخير والشر فطرة الإنسان وطبعه :

وهب الله الإنسان القدرة على التمييز بين الخير والشر ؛ لذلك فالتربية الإسلامية تعمل على تنمية الإنسان فى اتجاه الخير وشُعَب الإيمان المختلفة ، كما تعمل على إبعاده عن الشر وطرق الفساد بأنواعها ، قال تعالى :

﴿ونفس وما سوَّاها فألهمها فجورها وتقواها﴾

وقال تعالى :

﴿فأقم وجهك للدين حنيفًا فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيِّم ولكنَّ أكثر الناس لا يعلمون﴾

وخضوع الإنسان بالعبودية لله وحده هو قيمة الخير فيه ، فلا سلطان فى الوجود لغير الله عليه ، قال تعالى :

﴿فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم﴾

إذًا فتربية الإنسان – خليفة الله فى أرضه – هى محور هذا الوجود.

والناس جميعًا عباد لله ، يتفاضلون عند الله بتقواهم وصدق إيمانهم ، قال تعالى :

﴿يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾

والناس فى تفاضلهم هذا متفاوتون فى قدراتهم واستعداداتهم ، وعلى علماء التربية الإسلامية أن يراعوا خصائص كل فرد وسماته باعتباره وحدة منفردة مستقلة بذاتها ، ومن الصعب أن نصبَّ الناس جميعًا فى قوالب جامدة لا يتفاوتون ولا يختلفون ، قال تعالى :

﴿وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم﴾

كما أن من طبيعة هذا الفرد المزاوجة بين الخير والشر ، فالخير يُواجَه بالإثابة والتعزيز والتشجيع ، والشر له زواجر ونواهٍ ، وهو ما يُعرف فى القرآن الكريم بأسلوب الترغيب والترهيب .

الصلاح الدينى ودوره فى التربية :

يحث الإسلام على ضرورة اختيار الزوج والزوجة من الصالحين ؛ لأهمية دور الأسرة فى تنشئة الأطفال ، فعن اختيار الزوج قال تعالى :

﴿ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم﴾

وقال رسول الله ﷺ :

«إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوّجوه ، إلّا تفعلوا نكن فتنة فى الأرض وفساد كبير» .

فالدين الخالص والخلق القويم ينبغى أن يكونا المعيار الأساسى فى اختيار الزوج المناسب .

أما عن اختيار الزوجة فقد أوصى النبى ﷺ باختيار ذات الدين ، فقد قال ﷺ :

«فاظفر بذات الدين تربت يداك» .

وقال تعالى : ﴿ولأمةٌ مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم﴾

فهذان الزوجان الصالحان هما اللذان يعلمان حقوق طفلهما ، ويعملان على إعطائها له كاملة ؛ فمن حق الطفل

أن يختار له أبواه الاسم الحسن ؛ لأنه أدعى إلى الاحترام والاهتمام ، ومن حقه أيضًا الرضاعة الطبيعية من الأم ما لم يكن بها أذى أو مرض .

قال تعالى :

﴿والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة﴾

وفى تفسير هذه الآية ورد أنه أمْرٌ جاء بصيغة الخبر ؛ للمبالغة فى تقريره ، والأمر للوجوب مطلقًا ، فالأصل أنه يجب على الأم إرضاع ولدها ما لم يكن هناك عذر مانع من مرض أو غيره .

ومن حق الطفل فى الإسلام أن ينال الحب والعطف والاهتمام ؛ وذلك لما له من أثر فى إضفاء السكينة وصحة النفس عليه . ومن سُنَّة النبى ﷺ ما رُوِى عنه : «أن ابنه إبراهيم كان مسترضَعًا فى أعالى المدينة فكان ينطلق فيدخل البيت ، فيأخذه فيقبِّله ثم يرجع» .

ومن حقوق الطفل – أيضًا – العدل بينه وبين إخوته فلا

تفضيل لكبير على صغير ، ولا لذكر على أنثى ، فالكل سواء فى المعاملة والحب والتوجيه والتربية . قال رسول الله ﷺ : «اتقوا الله واعدلوا فى أولادكم» .

وكذلك من حق الطفل فى الإسلام إرساء دعائم الأمن فى نفسه ، فلا يصح أن يشهد أى مظهر من مظاهر الاختلاف بين الأبوين . قال تعالى :

﴿لا تُضارَّ والدة بولدها ولا مولود له بولده﴾

وقد فسر بعض العلماء هذه الآية بأنه لا ينبغى أن يتخذ أحد الوالدين من الطفل سببًا لمضارة الآخر ، فلا يستغل الأب عواطف الأم وحنانها ولهفتها على طفلها ليهددها فيه أو يجبرها على إرضاعه بلا مقابل ، ولا تستغل الأم عطف الأب وحبه لتثقل كاهله بمطالبها .

مما تقدم نعلم أن حقوق الطفل فى الإسلام تهدف أول ما تهدف إلى إرساء دعائم الأمن فى نفس الطفل ، ودعم صحته النفسية ، وإشباع حاجاته النفسية السوية ، ومما يساعد على ذلك :

أ - العطف والحنان لما لذلك من أثر فى تنشئة الأطفال تنشئة وجدانية سليمة مع ضرورة وجود معايير وضوابط ؛ حتى لا يفسده التدليل .

ب - اختيار الصحبة الصالحة ، فقد قال النبى ﷺ : «مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير» .

لذلك يجب الحرص على انتقاء القرناء من ذوى الأخلاق الحسنة والعادات المرغوب فيها .

كما أن الطفل إذا حُرِم العطف والحب أو عُومِل بجفاء وغلظة لم نجنِ منه إلا الجفاء والغلظة ، بل والتمرُّد أحيانًا ؛ فالطفل يستمد فكرته عن نفسه من المحيطين به ، ويميل إلى كسب محبة أبويه ليكون موضع تقديرهم وثنائهم ، فيرتفع بسلوكه وتصرفاته ومعاملاته إلى المستوى المتوقَّع منه ، ويخشى أن يأتى بسلوك أو تصرف يقلل من شأنه أو يحط من قدره فى نظرهم ، فيفقد محبتهم وثناءهم ، ومع ذلك فقد يخطئ الطفل أو يسلك سلوكًا غير سليم ، فيحتاج إلى التوجيه والنصح والإرشاد

والصبر ؛ ولذلك لما رأى «الأقرع بن حابس» النبى ﷺ يُقبِّل «الحسن بن على - رضى الله عنهما - قال له : إن لى عشرة من الولد ما قبَّلتُ أحدًا . فقال النبى ﷺ : «من لا يرحم لا يُرحَم» .

طرق التربية الإسلامية وأساليبها

الترغيب والترهيب من أساليب التربية التى تعتمد على فطرة الإنسان ورغبته فى الثواب والنعيم والرفاهية ، كما تعتمد على الرهبة من العقاب والشقاء وسوء العاقبة . وقد عبَّر الله - تعالى - عن الترغيب بقوله :

﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أُعِدَّت للمتقين﴾

وعبَّر عن الترهيب بقوله :

﴿يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارًا وقودها الناس والحجارة أُعدت للكافرين﴾

وتعتمد التربية الإسلامية على إثارة الانفعالات والعواطف

المختلفة فى التربية الوجدانية .

ويعتمد الترهيب على انفعال ، مثل : انفعال الخوف الذى يُعَدُّ حالة وجدانية داخلية فطرية أوجدها الخالق - عز وجل - فى نفس الإنسان والحيوان ؛ ليبعدهما عن مصادر الضرر ، ويجعل كلًّا منهما فى حذر وترقُّب من أن يلحق به أذى .

كما يعتمد الترغيب على انفعال ، مثل : انفعال الحب الذى هو حالة وجدانية داخلية فطرية أوجدها الله - تعالى - فى نفس الإنسان والحيوان ؛ ليجذبهما بها إلى السعادة والأمن ؛ ولذلك يأمرنا الحق - تبارك وتعالى - أن ندعوه خوفًا من عذابه وطمعًا فى ثوابه ، قال تعالى :

﴿ادعو ربكم تضرُّعًا وخفية إنه لا يحب المعتدين ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفًا وطمعًا إن رحمة الله قريب من المحسنين﴾

وعاطفة الخشوع : وما تشتمل عليه من عبودية وانقياد وخضوع لله - عز وجل - تُعَد ثمرة للخوف ودليلًا على الرجاء والمراقبة لله - تعالى - وهى عاطفة مترتبة على صدق

العبودية وإخلاص العمل ، ولا تتحقق إلا بذكر الله وقراءة القرآن ، قال تعالى : ﴿ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق﴾

وتعتمد التربية بالترغيب والترهيب على ترقيق العواطف الدافعة إلى السلوك ، وعلى السموّ بالغرائز وتنظيمها وتوجيهها . كما تعتمد على ضبط الانفعالات والعواطف والموازنة بينها ؛ فيجمع الإنسان بين الخوف من عقاب الله والرجاء فى رحمته . ولا يصح أن يطغى الخوف على الرجاء فيقنط المذنب من رحمة ربه ، قال تعالى :

﴿قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعًا إنه هو الغفور الرحيم﴾

كما لا يصح أن يطغى الرجاء على الخوف ؛ فيترك العبد العمل الصالح بحجة أنه يحسن الظن بالله ، وكذب ؛ لو أحسن الظن لأحسن العمل ، قال تعالى :

﴿نبّئ عبادى أنى أنا الغفور الرحيم وأن عذابى هو العذاب الأليم﴾

وحينما يستخدم القرآن الكريم أسلوب الترغيب والترهيب تكون الغاية هى الحث على عمل الخير والتنفير من عمل الشر . فإذا انتقلنا إلى حقل التربية فإننا يجب أن نُشعِر المتعلّم بأنه إذا أحسن فسيحظى بالثواب الحسى أو المعنوى ، وإذا أخطأ فسنعظه أولًا ، ونبصره بعاقبة فعله . فإذا تكرر الخطأ فالعقوبة واجبة بدليل قول القرآن الكريم فى شأن المرأة الناشز :

﴿وإن خفتم نشوزهن فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلًا﴾

هذا مع الفارق فى نوع العقوبة بالنسبة إلى كل منهما .

ـــ ومن أساليب الترغيب فى القرآن الكريم وعْد الله للذين آمنوا باستخلافهم فى الأرض والتمكين لهم ، وإسباغ الأمن فى نفوسهم ، قال تعالى :

﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنًا يعبدوننى لا يشركون بى شيئًا ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون﴾

وكذلك الترغيب بالحياة الطيبة والأجر الحسن للعمل الصالح ، قال تعالى :

﴿ومن عمل صالحًا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾

والترغيب والترهيب أسلوب قرآنى فى التربية ، ففى الترغيب وعد بالإثابة وتحبيب فى الطاعة ، وفى الترهيب زجر عن الزلل والمعصية ، وتخويف من الخطايا والآثام . وقد استفاد علماء التربية من هذا الأسلوب ، وعليه وُضِعت أُسس الثواب والتشجيع بطريقة معتدلة متوازنة ؛ كما وُضِعت أُسس العقاب ومراحله وشروطه .

التربيـة بالأسـوة الحسنـة :

قال – تعالى – عن نبينا محمد ﷺ :

﴿لقد كان لكم فى رسول الله أُسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرًا﴾

وتمتد الأُسوة لتشمل جميع الأنبياء والرسل ، باعتبارهم هداة

ونماذج صالحة على طريق الخير والفضيلة والتربية الرشيدة قال تعالى :

﴿لقد كان لكم فيهم أُسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر﴾

لذلك فكل طفل يحتاج فى تربيته إلى الأُسوة الحسنة والقدوة الصالحة ، ويتخذها من أحد والديه أو من كليهما ، أو من معلميه ، أو ممن يقومون على تربيته ، فالناس لديهم حاجة نفسية إلى أن يتشبهوا ويقتدوا بالأشخاص الذين يحبونهم ويقدرونهم ، وهذه الحاجة تنشأ فى بادئ الأمر من خلال تقليد الأطفال لوالديهم ، أو مَنْ على شاكلتهم وتقمُّصهم لشخصياتهم ، بمعنى أننا نتعلم خلال الطفولة أنه من الضرورى أن يصبح المرء شبيهًا بالناس الذين لهم أهمية بالنسبة إليه ، وأن هذا الأمر ينتقل من الآباء إلى الأصدقاء بمرور الزمن وعند الكبر .

وبمرور الزمن يمكن أن نحبب الأطفال فى سيرة نبينا محمد ﷺ وصحابته والنماذج التاريخية المضيئة فى عصور ازدهار

الإسلام وتقدمه .

والمربِّى قدوة ، سواء كان أبًا ، أو أمًّا ، أو معلمًا ، ويجب أن ينظر إلى سلوكه قبل أن ينصح طفله ؛ ليرى هل يطابق قوله فعله أم لا ؟ وإلا فسيقع تحت قول الله تعالى :

﴿يا أيها الذين آمنوا لِمَ تقولون ما لا تفعلون كَبُرَ مقتًا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون﴾

ولذلك ينصح الإمام «الغزالى» القائمين على تربية الطفل بأن يكون المعلم عاملًا بعلمه ، فلا يكذِّب قوله فعلُه .

ولقد حرص علماء التربية المسلمون على أن يكون المعلم مثلًا يُحْتَذَى ، وأُسوة صالحة يتأسى الأبناء بها . ومما ذكره «الأصمعى» من أبيات لأبى الأسود الدؤلى فى هذا الصدد ، قال :

يا أيها الرجل المعلم غيره	هلًّا لنفسك كان ذا التعليم ؟
تصف الدواء لذى السقام وذى	الضنا كيما يصح به وأنت سقيم
ونراك تصلح بالرشاد عقولنا	أبدًا وأنت من الرشاد عديم
ابدأ بنفسك فانهها عن غيِّها	فإذا انتهت عنه فأنت حكيم

التربية بضرب الأمثال :

تهتم التربية الإسلامية بضرب الأمثال ، وخاصة فى القرآن الكريم والسنة النبوية ، وذلك لِمَا له من أثر فى توضيح المعنى وتقريبه وتعميق الشعور به ، قال تعالى :

﴿يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شىء عليم﴾

والأطفال يستفيدون كثيرًا من أسلوب التربية الإسلامية فى ضرب الأمثال ؛ وذلك لأن مداركهم عادة تقف عند الأمور المحسوسة ، فلا يمكنهم فهم المعانى الكلية المجردة إلا بواسطة الأمثلة المحسوسة وخاصة فى مراحل الطفولة الأولى .

التربية باستخدام القصة :

للقصة دور كبير فى التأثير وبث الفضائل والأخلاق الحميدة والتهذيب وتقويم النفس والهداية دون الحاجة إلى صريح الوعد والوعيد ، أو العظة المباشرة بالترغيب أو الترهيب ، قال تعالى :

﴿إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى﴾

ومن الأمور المعروفة فى مجال التربية أن القصة تستهوى الطفل فى سنى عمره المبكرة ، ويفضلها على غيرها لأنها تترك أثرًا واضحًا فى نفسه ، وتغرس لديه القيم المرغوب فيها من خلال مشاركته الوجدانية ، وتعاطفه مع أبطال القصة ، ومعايشته الحوار والأحداث التى تصورها .

وقد أشار الإمام «الغزالى» إلى دور القصة فى التربية فى قوله :

«يتعلم الطفل القرآن وأحاديث الأخبار ، وحكايات الأبرار وأحوالهم ؛ لينغرس فى نفسه حب الصالحين» .

والقصص القرآنى فى جملته أسلوب فى التربية ، وطريقة مُثلى فى التعليم ، ففى سورة المائدة – مثلًا – نجد قصة «ابنَى آدم» ، وما تدور حوله من عاقبة العمل الطيب وإخلاص النية ، وقصة «أهل الكهف» وما تصنعه العقيدة الصادقة فى النفوس وما تنتشر به من عاقبة الصبر والثبات ، وقصة «يوسف» – عليه السلام – ودورها فى زرع العفة وإظهار قيمة القدوة والإخلاص والثبات ووجود الصراع الأزلى بين الخير والشر ،

إلى غير ذلك من القصص القرآنى ، هذا بالإضافة إلى عشرات من القصص النبوى الهادف كقصة «الأقرع والأبرص والأعمى» التى تحض على شكر النعمة ودوام ذكر فضل الله تعالى ، وقد استفاد علماء التربية من القصص القرآنى والقصص النبوى ، وجعلوهما نموذجًا يحُتذَى فى إعداد أنواع من القصص تحمل فى طياتها أنماط الثواب وأوجه العقاب التى تُستخدَم فى التربية للأطفال .

التربية بالثواب والعقاب :

الثواب والعقاب من أظهر أشكال التربية والضبط الاجتماعى وتوجيه السلوك ، فالثواب يساعد فى تثبيت السلوك السوى وتدعيمه ، وتحسين الأداء وتقويمه . وقد أكدت نظريات علم النفس فى مجال التعليم على دور الإثابة والتشجيع فى تعزيز السلوك الإيجابى ، كما سنعرض فيما بعد . وقد أكد هذا الاتجاه العديد من أئمة الفكر التربوى الإسلامى ، كالغزالى ، و«القابسى» ، و«ابن جماعة» و«ابن خلدون» مما سنفصله فى موضعه .

وحينما نكافئ أطفالنا على سلوكياتهم الحسنة ، ونقابلها بالاستحسان والقبول خاصة فى سنى عمرهم المبكرة ؛ فإننا بذلك نبثُّ الثقة فى نفوسهم ونشجعهم على مزيد من التعلُّم الجيد ، فقد كان النبى ﷺ يستخدم المكافأة والثواب فى إثارة نشاط الأطفال للقيام برياضة التسابق ، ولكى يدعم هذا النشاط ويثبت تعلمهم له ، كان عليه الصلاة والسلام يقول : «من سبق فله كذا» فكانوا يستبقون إليه ويقعون على صدره ، فيلتزمهم ويقبِّلهم .

أما استخدام العقاب فأوصى المربُّون المسلمون بعدم اللجوء إليه وحده إلا إذا فشلت أساليب الترغيب ؛ فالشكر والثناء والاستحسان ، وتقديم بعض الهدايا البسيطة وغيرها يدفع التلميذ إلى المزيد من النجاح ، أما العقاب وحده فإنه يدفع إلى الخمول وضعف الأداء ، وتثبيط الهمة ، ويجب مراعاة ما بين الأطفال من فروق فردية ، فمنهم من ترهبه الإشارة ، ومنهم من لا يردعه إلا الجهر الصريح ؛ ولذلك يقول رسول الله ﷺ :

«علقوا السوط على الجدار وذكروهم بالله» .

ومن خطوات استخدام العقوبة فى التربية الإسلامية ما يلى :

(١) تجاهل خطأ الطفل فى البداية مع حسن الإشارة والتلميح دون المواجهة والتصريح ، وذلك حتى يُعطَى الفرصة لمراجعة سلوكه وتصحيح خطئه ، وحتى لا نلفت نظره بشدة إلى الخطأ ، فربما استمر عليه عنادًا وإصرارًا .

(٢) عتاب الطفل سرًّا ، وهذه مرحلة تالية ، فبعد السقطة الأولى التى نكتفى فيها بالتلميح تأتى مرحلة التوبيخ والتصريح سرًّا ؛ على ألا نكثر من ذلك حتى لا تسقط هيبة المربى فى نفس الطفل .

ومن توجيهات علماء التربية المسلمين :

ألا يكثر القول عليه بالعتاب فى كل حين ، فإنه يهون عليه سماع الملامة وركوب القبائح ويسقط وقع الكلام فى قلبه .

(٣) عتاب الطفل ولومه جهرًا : فإذا استمر على خطئه رغم

تحذيره ومعاتبته سرًّا فينبغى معاتبته أمام أسرته ، أو رفاقه ، ولا ينبغى أن يشتمل لومه وتقريعه على شتم ، أو سب عرض ، أو تحقير لذاته . والهدف من معاتبته على ملأ هو استغلال خوف الطفل على مكانته بين أقرانه فى الرجوع عن الخطأ وتعديل السلوك ؛ وذلك ليكون عظة وتحذيرًا للآخرين ؛ حتى لا يسلكوا المسلك نفسه ، والعاقل من اتعظ بغيره . وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحكمة فى تعقيبه على تنفيذ حد من حدود الله ، وذلك فى قوله تعالى :

﴿وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين﴾

وينبغى عدم تكرار الجهر بالعتاب للطفل ؛ وذلك حتى لا تفقد العقوبة قيمتها . والواقع أن الطفل إذا تكرر لومه وتوبيخه فإنه يمر بثلاث مراحل :

ــ مرحلة التألم نتيجة الشعور بالذنب .

ــ ومرحلة التضايق نتيجة التوبيخ مع الكراهية لمصدره

ــ ومرحلة عدم إعارة التوبيخ ومصدره أى اهتمام (اللامبالاة) .

والواجب على الآباء أن يعودوا أنفسهم نسيان كل ما يتعلق بالذنب ؛ حتى لا يترك فى نفوس أبنائهم أثرًا من كراهية .

(٤) الضرب : وهو يأتى فى نهاية المطاف بالنسبة إلى أساليب العقوبة المختلفة ، وقد أقرَّها المربُّون المسلمون بعد استنفاذ كل وسائل التأديب الأخرى ، وأحاطوها بشروط بالغة ؛ حتى لا تخرج العقوبة عن مغزاها التربوى ، ولابد أن يكون الضرب على ذنب حقيقى ، فلا يصح أن يُضرَب الطفل على شبهة أو على ظن ، وألا يكون الضرب شديدًا مبرحًا ، فيخرج من دائرة العقوبة الموجهة إلى الانتقام والتشفِّى ، وألا يزيد الضرب على ثلاث ضربات ، فإن زاد على ذلك فينبغى استئذان ولى الأمر ، وألا يكون الضرب على الوجه أو على الأماكن ذات الحساسية الشديدة فى الجسم .

والثواب والعقاب أسلوب يقوم على مقابلة الخير والشر فى نفس الإنسان ، فى توازن واعتدال بلا إفراط

أو تفريط ؛ ولذلك قال رسول الله ﷺ :

«علِّقوا السوط على الجدار وذكروهم الله» .

أى نعلق عصا صغيرة أمام الأطفال ، ولا نضرب بها ، فإذا رآها الطفل هابها ، وإذا ذاقها هانت عليه ، وتعود جلده الضرب،ونذكره بالله فنقول له مثلًا : إذا فعلتَ كذا يحبك الله ويدخلك الجنة . أما إذآ فعل ما يوجب العقوبة فنقول له مثلًا : هذا لا يرضى الله وسيغضب عليك ويعاقبك . ثم نتدرج فى العقوبة ، كأن نعبس فى وجهه أو نوقفه إلى الجدار ، أو نفرك أذنه بلطف .

وفى حالة صدور سلوك عدوانى عن الطفل ، كأن يلقى بقطعة من الطباشير على السبورة أثناء انشغال المعلم ، أو يلقى بشىء على الأرض - غضبًا - فى منزله ؛ فيجب فى هذه الحالة محاولة فهم أسباب هذا السلوك . هل لأنه كُلِّف بعمل فوق طاقته أو قدرته على الاستيعاب ؟ أم هو يعبر عن استيائه لنقد وجهة النظر

الخاصة به ؟ أم هناك إهانة وُجِّهت إليه ؟ أم لأن والده أو معلمه لم يظهر اهتمامه به ؟

إن فهم أسباب العدوان تُعَد الخطوة الأولى للعلاج ؛ لأن المزيد من العقاب يؤدى إلى مزيد من العناد .

آراء بعض علماء التربية المسلمين الثواب والعقاب

آراء القابسى فى مسألة الثواب والعقاب :

وتكشف آراؤه عن طول باعه فى التربية والتعليم ، ففى أمر الإثابة يوصى بالرفق بالمتعلمين، واستعمال اللين معهم ، وإسداء النصيحة الخالصة لهم ، وأن يكون المعلم عوضًا عن آبائهم . ومن قوله فى ذلك : «ومن حسن رعايته لهم أن يكون بهم رفيقًا ، فإنه قد جاء عن عائشة - رضى الله عنها - أن رسول الله ﷺ قال : اللهم من ولى من أمر أمتى شيئًا فرفق بهم فيه فارفق به ، وقد قال رسول الله ﷺ : إن الله يحب الرفق فى الأمر كله ، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء» .

وفيما يتعلق بالعقاب أقر «القابسى» عقوبة الضرب ، إلا أنه اشترط عدة شروط ؛ كى لا يخرج الضرب عن الزجر والإصلاح إلى الانتقام والتشفّى . ونعرض فيما يلى لهذه الشروط :

١ - ألا يوقع المعلم الضرب إلا على ذنب .

٢ - أن يوقع المعلم الضرب بقدر الذنب الواقع من الصبى .
ومن قول «القابسى» : «بقدر الاستئهال الواجب فى ذلك الجرم» .

٣ - أن يكون الضرب من واحدة إلى ثلاث ، ويُستأذَن القائم بأمر الصبى فى الزيادة إلى عشر ضربات .

٤ - أن يزيد على العشر ضربات إذا كان الصبى يناهز الاحتلام ، سيئ الرعية ، غليظ الخلق ، لا يُرِيعه (أى لا يخيفه) وقوع عشر ضربات عليه .

٥ - أن يقوم المعلم بضرب الصبيان بنفسه ولا يترك هذا الأمر لأحد من الصبيان ؛ وذلك لأنهم تجرى بينهم الحمية والمنازعة .

٦ - صفة الضرب أنه ما يؤلم ، ولا يتعدى الألم إلى الضرر البالغ .

ونلاحظ هنا أن «القابسى» لا يوافق على إباحة الضرب إلا إذا استنفد المعلم جميع وسائل الوعظ والتنبيه والتهديد والتخويف ، فإذا استحق الصبيُّ الضرب بعد ذلك فلا بأس به ، وإذا زاد المعلم على ثلاث ضربات فلابد من استئذان ولى أمر الصبى .

كما أن ما ذكره فى كيفية العقاب يتمشى مع روح الإسلام فى مبادئه وأصوله وطريقته فى تربية البشر ، حيث يبدأ بالرفق واللين ، وينتهى بالشدة والحزم ، ويضع الأمور فى موضعها ، فيقرر العقوبة الملائمة للذنب ، ويأخذ الصبيان بالشدة فى رفق ، وفى إطار من الروح الإنسانية والإيمان بكرامة الإنسان ، وفى جو من الرحمة والعدالة والمساواة .

آراء الإمام الغزالى فى الثواب وأثره فى عملية التعليم :

ينصح المعلمين بالشفقة على المتعلمين ، وأن يكونوا لهم كآبائهم ، وأن يكرموهم بما يفرحون به ، وإذا أحرز المتعلم

تقدُّمًا فينبغى أن يلحظ نتيجة اجتهاده فى ثناء المعلم عليه وشكره له ، والإشادة به ، خاصة فى جماعة ؛ لإعلاء شأنه ، وجعله نموذجًا وقدوة يُحتذَى بها . ومن قوله : «فإذا ظهر من الصبى خلق جميل وفعل محمود ؛ فينبغى أن يُكرَم عليه ، ويُجازَى عليه ، بما يفرح به ، ويُمدح بين أظهر الناس» . و«الغزالى» هنا يتبع منهج النبى ﷺ فى مدحه لصحابته تشجيعًا لهم .

أما العقاب وأثره فى التعليم :

فالغزالى من العلماء الذين أدركوا أن العقوبة التربوية يجب أن تكون عقوبة مربية ، بمعنى أن تكون ذات طبيعة بنَّاءة تتوخى الإصلاح ، وليس تدمير مشاعر المتعلم وإهانة كرامته والتحقير من شأنه . ومن حق المعلم على المتعلم أن يزجره ويؤدبه .

ويسلك المعلم مسالك متدرجة فى تربية المتعلم ومعاقبته على الخطأ ، فمن قوله فى ذلك : «فإن خالف ذلك (عكس الخلق الجميل والفعل المحمود) بعض الأحوال مرة واحدة فينبغى أن يتغافل عنه ، ولا يهتك سرَّه ولا يكاشفه ، ولا يظهر له أنه يتصور أن يتجاسر أحد على مثله ، ولاسيما إذا ستره الصبى

واجتهد فى إخفائه ، فإن إظهار ذلك ربما يزيده جسارة حتى لا يبالى بالمكاشفة ، فعند ذلك إن عاد ثانيًا فينبغى أن يُعاتَب سرًّا ويعظم الأمر فيه ، ويُقال له : إياك أن تعود بعد ذلك لمثل هذا ، وأن يُطَّلع عليك فى مثل هذا ، فتُفتضَح بين الناس».

ويلفت «الغزالى» أنظارنا إلى أن معاتبة الطفل وتوبيخه بصفة مستمرة وتذكيره دائمًا بالخطأ الذى بَدَرَ منه يجعله عنيدًا وينمِّى فى نفسه «شعور اللامبالاة» فلا يفتأ يكرر غلطته ، طالما أن كلام الآباء أصبح مكررًا لا قيمة له ، ومن قوله فى ذلك : «ولا تكثر القول عليه بالعتاب فى كل حين فإنه يهوِّن عليه سماع الملامة ، وركوب القبائح ، ويُسقِط وقع الكلام من قلبه ، وليكن الأب حافظًا هيبة الكلام معه فلا يوبخه إلا أحيانًا ، والأم تخوِّفه بالأب وتزجره عن القبائح» .

آراء ابن جماعة فى مبدأ الثواب وأثره فى التعلم :

أن الإثابة هى أقوى أثرًا وأعلى شأنًا فى تعلُّم الطفل من العقوبة ، وأن الشكر والثناء من المعلم يدفعان تلاميذه إلى المزيد من النجاح والتحصيل الجيد ، كما أنها تبعث على الاجتهاد

والمنافسة المحمودة بين المتعلمين . ومن قوله فى ذلك : «يطالب المعلم الطلبة فى بعض الأوقات بإعادة المحفوظات ، ويمتحن ضبطهم لما قدم لهم من القواعد المهمة والمسائل الغريبة ، ويختبرهم بمسائل تُبنَى على أصل قرره أو دليل ذكره ، فمن رآه مصيبًا فى الجواب ، لم يُخفِ عليه شدة الإعجاب ، وشكره وأثنى عليه بين أصحابه ؛ ليبعثه وإياهم على الاجتهاد فى طلب الازدياد» .

ونلاحظ أن «ابن جماعة» يفضِّل أن يكون الثواب أو التدعيم بالقبول والاستحسان والثناء والشكر ، ولابد من أن يوضح لتلاميذه أن هذا الشكر سببه الاجتهاد والتفوق ، فيظهر بذلك حياده وإنصافه . ولعل ذلك يصادف جانبًا مهمًّا فى الطبيعة الإنسانية ، وهو أن الإنسان إذا وجد تشجيعًا كان ذلك أدعى إلى التقدم والتفوق ، أما إذا وجد تثبيطًا وإحباطًا فإن ذلك سيؤدى إلى تقهقره وفتور همته .

أما العقاب وأثره فى التعلُّم :

فيرى «ابن جماعة» أن العقوبة التربوية تتفاوت على أربع

درجات من الشدة ، فإذا صدر من المتعلم سلوك غير مقبول ، على المعلم أن يتبع المراحل التالية :

١ - النهى عن ذلك بحضور من صدر منه الفعل الخاطئ ، ودون التعريض به ، أو الإهانة له ، وعدم ذكر اسمه أو تحديد شخصيته .

٢ - فإن لم ينته ، نهاه المعلم عن ذلك سرًّا ، ويكتفى بالإشارة مع من يكتفى بها . (أى مع مَنْ تفلح الإشارة فى لفت أنظارهم) .

٣ - فإن لم ينته ، نهاه عن ذلك جهرًا ، وليغلظ عليه القول إنْ لزم الأمر ؛ لينزجر هو وغيره ، ويتأدب كل سامع .

٤ - فإن لم ينته ، فلا بأس حينئذٍ من طرده والإعراض عنه إلى أن يرجع (عن السلوك الخطأ) ، ولاسيما إذا خاف (المعلم) موافقة بعض الطلبة له .

ونلاحظ هنا الابتعاد عن العقوبة التى تجرح كرامة الإنسان وتحط من قدره ، وكذلك العقوبة الصارمة القاسية التى تنجم عنها كراهية الشخص المعاقِب . وتولِّد فى النفس الشعور

بالنقص ، وتزرع فيها الخوف .

وعند استخدام العقوبة ينصح «ابن جماعة» المعلم بأن يتحلى بالحلم وسعة الصدر ولين الجانب فى معالجة أخطاء تلاميذه ، فيقول : «والصبر على جفاء ربما وقع منه ، ونقص لا يكاد يخلو الإنسان عنه ، وسوء أدب فى بعض الأحيان ، ويبسط عذره بحسب الإمكان ، ويوقفه مع ذلك على ما صدر منه بنصح وتلطف لا بتعنيف ولا تعسُّف ؛ قاصدًا بذلك حسن تربيته» .

فالعقوبة عند «ابن جماعة» إرشاد وتوجيه للسلوك وحرص على تعديله برفق . ويحرص كذلك على أن يكون الدافع من وراء العقاب ليس الانتقام والكراهية والسخط ، بل حُسن التربية والإخلاص فى العمل .

آراء ابن خلدون فى الثواب والعقاب :

فيما يتعلق بالثواب والعقاب ، ذكر «ابن خلدون» فى «المقدمة» فى فصل : «أن الشدة على المتعلمين مضرَّة بهم» حيث أنكر على معاصريه الشدة والقسوة فى تعليم المتعلمين ، وأشار

إلى ضرورة أن نفهم نفسياتهم ، ونقف على أبعاد شخصياتهم ؛ حتى يمكن أن نوجههم ونُقوِّم أخطاءهم . كما نبه إلى أن سوء معاملة المتعلمين يقود حتمًا إلى ألوان كثيرة من الانحرافات النفسية والسلوكية التى تظهر كنتيجة للقسوة والشدة والعنف فى تربية المتعلمين .

ومن قوله فى ذلك :

«.. من كان مربيًا بالعسف والقهر من المتعلمين ، سطا به القهر ، وضيق على النفس فى انبساطها ، وذهب بنشاطها ، ودعاه إلى الكسل ، وحمله على الكذب والخبث ، وهو التظاهر بغير ما فى ضميره خوفًا من انبساط الأيدى بالقهر عليه ، وعلَّمه المكر والخديعة ؛ لذلك صارت له هذه عادة وخلقًا وفسدت معانى الإنسانية التى له من حيث الاجتماع والتمدن ، وهى الحمية والمدافعة عن نفسه ومنزله ، وصار عليه لا على غيره فى ذلك ، بل وكسلت النفس عن اكتساب الفضائل والخلق الجميل ؛ فانقبضت عن غايتها ومدى إنسانيتها ، فارتكس وعاد فى أسفل سافلين . وهكذا وقع لكل أمة حصلت فى قبضة القهر» .

أساليب التنشئة الاجتماعية للطفل وأثرها بمبدأ الثواب والعقاب فى تربيته

للثواب والعقاب أهمية خاصة فى تصحيح مسار عملية التنشئة ، فنحن إذا كافأنا الطفل على سلوكه السوىّ وأنبأناه به ، تأكد هذا السلوك وتعزز وداوم الطفل عليه . وإذا فُوجِئنا بخروج الطفل على هذا السلوك السوىّ عاقبناه بما يتفق وحجم هذا الجرم الذى ارتكبه الطفل ، فالعقاب بدرجاته ومستوياته المتفاوتة هو الكفيل بتصحيح هذا المسار ، وتبصيره بموطن الخطأ فى سلوكه ؛ حتى يمكن التغلب عليه مستقبلًا .

وقد يحدث أن تتعارض التوجيهات مع مبدأ الثواب والعقاب خلال تربية الطفل ، فنحن نعاقب الطفل على تكرار كلمة بذيئة يسمعها فى الشارع ، ولكنه قد يسمع الكلمة نفسها يقولها والده كلما اعترضت سيارته سيارة أخرى ، أو جرى من أمامها أحد المشاة مسرعًا ، وهنا يحدث التناقض

فى عملية التنشئة الاجتماعية بالنسبة إلى الطفل ، ولا يستطيع أن يميز بين الصواب والخطأ ؛ نظرًا لتناقض القدوة والمثل ، وهو الأب أو المعلم . وهنا يتعين على الآباء والمعلمين مراجعة أنفسهم وتصويب ما يبدر منهم من أخطاء مما يقع منهم أمام الأطفال ويشاهدونه .

وعملية التنشئة الاجتماعية – ببساطة شديدة – هى عملية التطبيع الاجتماعى للإنسان . وللاتجاهات الوالدية دور مهم فى تنشئة أطفالهم تنشئة اجتماعية سليمة ؛ ولذلك فطريقة معاملة الوالدين لطفلهما من أهم العوامل وأخطرها فى تشكيل شخصية الطفل .

فالطفل الذى ينشأ فى أسرة يُعامَل فيها معاملة قاسية صارمة ويُحاسَب على كل هفوة حسابًا عسيرًا ، ويُعاقَب على كل فعل يحدث منه دون قصد ، لا شك أنه سيكون طفلًا مشكلًا ، وهو فى الوقت نفسه مختلف عن طفل مشكل آخر نشأ فى أسرة تستجيب لكل مطالبه وتدلله تدليلًا ، ويُعامَل فيها بالعطف والحنان المفرط ، فالطفل فى الأسرة الأخيرة ملك متوج . وقد

كان الرسول ﷺ يوصى أصحابه بالعفو عن خدمهم ومملوكيهم ، وعدم ضربهم. فعن «أبى مسعود البدرى» ، قال : كنت أضرب غلامًا لى بالسوط فسمعت صوتًا من خلفى يقول : «اعلم أبا مسعود» . فلم أفهم الصوت من الغضب . فلما دنا منى إذا هو رسول الله ﷺ يقول : «اعلم أبا مسعود ، اعلم أبا مسعود أن الله أقدر عليك منك على هذا الغلام». قال : فقلت : لا أضرب مملوكًا بعده أبدًا .

وهذا بالطبع يختلف عن طفل ثالث ليس بمشكل نشأ فى أسرة تعامل طفلها بقصد واعتدال وتوسُّط ، حب فى غير تدليل ، وحزم فى غير قسوة ، ولين فى غير ضعف . هذه أنماط أو اتجاهات ثلاثة فى تربية الأبناء اصطلح العلماء على وصفها بالاتجاهات الوالدية ، يختلف كل اتجاه منها عن الآخر فى تربية الأطفال وتنشئتهم ، وخاصة فى مجال الثواب والعقاب ، ومدى توظيفه فى عملية التربية .

وفيما يلى نعرض لهذه الاتجاهات ونوضح علاقتها بمبدأ الثواب والعقاب :

(أ) اتجاه الحماية الزائدة (بالتدليل) : ويتمثل هذا الاتجاه

فى تدليل الطفل وإشباع كل حاجاته ، وتلبية جميع رغباته ، والقيام عنه بكل واجباته ومسئولياته . ومثل هذا الطفل ينمو بشخصية أنانية غير قادرة على تحمُّل المسئولية ، شخصية ضعيفة إلى حد بعيد ، ويسهل قيادها والسيطرة عليها ، وهى أيضًا شخصية غير ناضجة ، تحب دائمًا أن تستحوذ على اهتمام الآخرين وتلفت انتباههم . وهذه الشخصية لا تستجيب بطريقة صحيحة للعقاب على الخطأ ، بل يرى صاحبها أن العقاب عدوان عليه ؛ لأنه لم يتعود الحساب على الخطأ ، وهو دائمًا يرى نفسه أحق بالإثابة والتشجيع والمدح ، حتى على السلوك السلبى .

(ب) اتجاه الحماية الزائدة (بالتسلُّط) : ويتمثل هذا الاتجاه فى تسلط الأب أو الأم بالأمر والنهى أو بالتهديد والحرمان والضرب والعقاب ، دون سبب واضح أحيانًا ، أو عقاب الطفل لأتفه الأسباب ، هذا بالإضافة إلى فرض إرادة الأبوين على الطفل فرضًا تامًّا ، فالصحيح عندهما من ألوان السلوك يفرضانه على طفلِهما دون الاهتمام بإثارة فاعليته وتركه

يكتسب السلوك الإيجابى بنفسه وفق قدراته وميوله ، وكذلك لا يتركان له فرصة لاجتناب السلوك الخاطئ .

وهذا الاتجاه يزرع فى نفس الطفل الخوف وضعف الثقة بالنفس والتردد والقلق والخجل وعدم الكفاءة ، وربما يكون الطفل معه مصدرًا للخطر على مجتمعه حينما يقوى عوده ويشب عن الطوق ؛ لأنه لم يستمتع بحريته ، ولم تُشبَع حاجته إلى تقدير الذات واحترامها .

(جـ) اتجاه النبذ أو الإهمال : ويتمثل هذا الاتجاه فى تخلى الوالدين عن الطفل وتركه وإهماله ، فلا يجد منهما تشجيعًا أو إثابة على السلوك الصحيح ، ولا يحاسبانه أو يعاقبانه على السلوك الخطأ ، فينشأ الطفل ومعه حيرته وعجزه وضعفه عن التفرقة بين ما ينبغى أن يكون وما لا ينبغى ، ينشأ وهو لا يدرى أين الصواب وأين الخطأ ، وتختلط عليه الأمور فلا يعرف لماذا يُعاقَب ، ولا لماذا يُثاب . وفى العادة تكون هذه الأسرة متصدعة نتيجة عدم التفاهم بين الأب والأم ، أو نتيجة تخلى أحدهما عن الآخر . والضحية طفل برىء لا يعرف

ما الذى يجب أن يتجنبه وما يجب عليه أن يقوم به ، ولا يجد لنفسه دورًا ؛ لأن الأمور مختلطة لديه ، وليس فى وسعه التمييز .

وفى العادة قد ينضم هذا الطفل إلى جماعة يجد لنفسه فيها مكانة ودورًا ، وتعوضه عن النبذ والترك والإهمال الذى لقيه فى طفولته ، ويجد فيها التشجيع والإثابة على كل عمل يؤديه ، حتى لو كان عملًا خارجًا عن الدين والعرف والتقاليد والقانون ، فيستمر فى عمله راضيًا ؛ لأنه لم يعرف منذ نعومة أظفاره أن يفرق بين الصواب والخطأ .

ويتضح هذا الاتجاه فى صور :

١ - عدم تزويده بالمعرفة الضرورية اللازمة لمواجهة الحياة ، فإذا طلب الطفل أن يتعلم شيئًا أو دفعه حب الاستطلاع للبحث عن شىء ، لا يجد من يأخذ بيده ويوضّح له الأمور ، فإذا أراد أن يخرج مع والده إلى مكان ما طلبًا للترويح والمتعة صدّه وأهمل طلبه ، وإذا ما التمس مساعدة من أمه فى حل واجباته المدرسية صرخت فى وجهه فى غضب وانفعال ، وتركته هكذا دون توجيه أو اهتمام .

٢ – اتجاه عدم إثابة الاستجابة الصحيحة والسلوك الإيجابى :

فمهما يُحسِّن الطفل أو يتفوق أو يبدع فى حدود قدراته لا يجد أُذنًا صاغية ولا قلبًا حانيًا عطوفًا يرق له عند النجاح أو الإنجاز ، فإذا استطاع أن يبنى بيتًا من عدة مكعبات وذهب إلى أمه جذلان فرحًا قائلًا : «صنعتُ كذا» ، إذا بها تزجره قائلة : «بلاش لعب عيال» فيعود كسير النفس مكلوم الفؤاد . وإذا ما توجه نحو أبيه يلتمس عنده التشجيع والإثابة قائلًا : «لقد حصلت على تسع درجات من عشر فى مادة كذا» ، إذا به ينفجر ساخطًا : «ولماذا لا تحصل على العشر كاملة ؟»، فيعود الطفل غضبان أسفًا .

فالأب والأم كلاهما يحرمان الطفل من الاستمتاع بلذة النجاح والشعور بحلاوته على أى عمل وإن قَلَّ . وكلاهما ينسى أن الإثابة والتدعيم من أهم الوسائل التى تساعد الطفل على تعلم السلوك الصحيح ، والتقدم نحو التعلم الذاتى وارتقاء الشخصية .

٣ – اتجاه القسوة : ويظهر هذا الاتجاه فى المجتمعات التى تأخذ نفسها بالشدة واستخدام أساليب العقاب البدنى واعتباره الأسلوب الأوحد فى التنشئة الاجتماعية والتطبيع الاجتماعى للطفل ؛ لأن ذلك فى نظرهم معيار الرجولة ، لظنهم أن القسوة والشدة هما اللتان تصنعان الرجال ، حتى الإناث لا تسلم من هذه القسوة ، ويبررون تصرفهم هذا بالمثل القائل : «اكسر للبنت ضلع يطلع لها اثنين» .

ويتخذ اتجاه القسوة مظهرين مهمين :

الأول : إثارة الألم النفسى لدى الطفل ، حيث يحرص الوالدان على تحقيره والتقليل من شأنه ، وخاصة أمام أقرانه أو أخوته ؛ مما يثير الألم النفسى لديه ، ويجعله ضعيف الثقة بذاته .

كما يجعله يكره الآخرين الذين يشعرونه بالذنب كلما أتى سلوكًا غير مرغوب فيه ، فينشأ الطفل ولديه عقدة ذنب تؤثر فى سلوكه فتجعله انسحابيًّا انطوائيًّا ، يوجه

عدوانه نحو ذاته أولًا ؛ لأنه يستشعر النقص دائمًا فى هذه الذات . ويترتب على ذلك أنه دائمًا يلوذ بالصمت ، فلو سأله مدرس الفصل عن شىء ما فإنه يؤثر السكوت رغم معرفته الإجابة ؛ لأنه يفتقد الأمان من جانب الكبار عمومًا ، حيث لم ينل منهم خاصة من والديه إلا السخرية والتحقير والتأنيب .

الثانى : العقاب البدنى : ولا يقل فى خطورته عن إثارة الألم النفسى فى آثاره السلبية فى شخصية الطفل ، حيث يجعل الطفل خائفًا ذليلًا ، يتوقع الشر دائمًا ، ويشعر بالإهانة وهوان النفس ، خاصة إذا وقع العقاب عليه أمام أعين الآخرين ، سواء كانوا صغارًا أو كبارًا . وتزداد الأمور خطورة إذا ضُرِب الطفل على وجهه ، وخاصة أمام مجموعة من رفاقه .

٤ – اتجاه التذبذب : ويتمثل هذا الاتجاه فى أن الأب والأم لا يستقران على حال فى استخدام أساليب الثواب والعقاب فى تربية الطفل ، فليست لديهما معايير محددة

يستطيع الطفل أن يميز بواستطها بين الصواب والخطأ ، وبين الأمور التى يُثاب عليها ، أو التى يُعاقَب عليها .

ومن أمثلة هذا الاتجاه فى مجال تربية أطفالنا :

ــ أنه من الممكن أن تعاقب الأم الطفل على سلوك بعينه ، فى حين يُثيب الأب على السلوك نفسه . ومن الأمثلة على ذلك أنه إذا زار الأسرة ضيف أو قريب ، ربما تغضب الأم إذا خرج طفلها ليسلم على الضيف أو يحادثه ؛ فتقرر عقاب الطفل ، وقد يفرح الأب بطفله الجرىء الاجتماعى الذى يألف الآخرين ، ولا يتردد أمامهم ، ويحرص على إثابة الطفل إما معنويًّا ، أو ماديًّا ، أو بكليهما معًا .

وربما يحدث العكس ، فيكون الأب قاسيًا على الطفل ، فى حين تعامله الأم باللين والحيلة والإثابة على الأخطاء التى يعاقبه عليها الوالد مهما تكن فادحة .

والأمر الخطير فى هذا الصدد هو عدم اتفاق كل من الأب والأم على تنشئة الطفل وتطبيعه اجتماعيًّا ، فإذا

عاقب الأب طفله على سلوك معين ، تسارع الأم فتحنو وتثيب وتغرق طفلها حنانًا وحبًّا ؛ فيحار الطفل ويتشتت : هل كان مخطئًا أم مصيبًا ؟ ويترتب على هذا التناقض أن تنشأ شخصية الطفل متقلبة مزدوجة ، وتصبح سمة شخصية ثابتة لديه فى كل ألوان سلوكه ومدى حياته .

٥ – عدم المساواة بين الأبناء ، وعدم توخى العدالة بين الأبناء فيما يتعلق بتنشئتهم اجتماعيًّا ، أو تفضيل الولد على البنت بسبب الجنس .

ودلت الدراسات التجريبية الحديثة على أن الخوف إذا كان معتدلًا وغير شديد أو مسرف ، فإنه يكون مفيدًا فى دفع الإنسان إلى حسن الأداء فيما يقوم به من أعمال . أما إذا كان الخوف على درجة عالية من الشدة ، أدى ذلك إلى اضطراب الإنسان وإلى سوء أدائه لما يقوم به من أعمال . فالخوف المعتدل يؤدى إلى حسن استعداد التلميذ للامتحانات الدراسية ، وإلى حسن أدائه فيها ،

أما الخوف الشديد من الامتحانات فيعوقه عن التركيز الجيد فى استذكار دروسه ، كما أنه يؤدى إلى أدائه السيئ لهذه الامتحانات .

ونستطيع أن نستدل من نتائج هذه الدراسات على أن الخوف الشديد جدًّا من عذاب الله قد يؤدى إلى اليأس من رحمة الله ، وحينئذ تضطرب شخصية الإنسان ، وقد يسوء أداؤه لواجباته الدينية ليأسه من النجاة من عذاب الله ، وبالمثل فى الترغيب والترهيب أو الثواب والعقاب عند تربية الأطفال .

الثواب والعقاب فى ضوء نظريات علم النفس

ـــ اهتمت نظريات التعليم المختلفة بعملية الثواب والعقاب باعتبارها شرطًا أساسيًّا من شروط حدوث التعليم ، بجانب النضج والدافعية والخبرة والتمرين ، وما إلى ذلك .

فالثواب عند أصحاب «النظرية الشرطية» مثل الدافع تمامًا

فى إحداث التعلم . كما يرى أصحاب «نظرية المجال» أن الثواب يساعد الطفل على التعلم ؛ لأننا عندما نثيب الطفل إنما نساعده على تحسين أدائه أو سلوكه فنجذبه إلى الخبرة المقصود تعلمها .

وتنص نظريات التعليم على أن الاستجابات التى نكافىء الطفل عليها تجعل لديه عادات سلوكية ثابتة نسبيًّا ، أما تلك التى نعاقبه عليها فقد تضعف وتختفى ، والثواب والعقاب لا يقتصر أثرها على الاستجابات المكافأة أو المُعاقَب عليها فقط ، بل يظهر أثرها فى الشخصية بصفة عامة ، فتحدث عملية صياغة شاملة لشخصية الطفل ، وتتكون عادات وسمات واتجاهات وقيم تصبح ركائز ودعائم لشخصية الطفل ، ويظهر أثرها عليه فيما بعد .

وليس من الضرورى أن يطيعنا الطفل فى كل ما نأمره به ، أو ما نرجوه منه ، إذ إن هذه العملية ترتبط بمؤثرات عديدة ، ربما تعوق تحقيق الصورة المثالية التى ينشدها الآباء والمربون فى أطفالهم ، وربما أدى ذلك إلى نتائج لا نرجوها ولا نتمناها لأطفالنا .

وقد أفادت نظريات التعليم كذلك أن عملية الإثابة أو المكافأة يعقبها إحساس الطفل بلذة العمل المثاب عليه والحرص على الاستمرار فيه بنجاح وتقدم ، كما أن الحرص على إثابة الطفل وتشجيعه يزيد من ثقته فى نفسه ، ويجعله حريصًا على الاستفادة مما تعلَّم .

وتحذر نظريات التعليم من عاقبة الإسراف فى عملية الإثابة للطفل على كل عمل يؤديه ؛ حتى لا يرتبط أى نجاح فى ذهن الطفل بما سيجنيه من مكافآت أو هدايا ، ولا يستطيع أن يدرك أن نجاحه فى الدراسة واجب أساسى من واجباته المفروضة والمقررة عليه ، وأن دوره يحتِّم عليه أن يكون متعلمًا جيدًا .

ـــ وتختلف الآراء حول مفهوم العقاب الذى يهدف إلى كف السلوك غير المرغوب فيه بالنسبة إلى الآباء وقيم المجتمع السائدة ، فيذكر «موررر» أن العقاب من الممكن أن يكون دافعاً من دوافع التعلم ، ويقرر «چون ديوى» أن بعض العقاب قد يكون الوسيلة الفعالة الوحيدة لإثارة اهتمام بعض الأطفال بالخبرات المراد تعلمها ، مع الأخذ فى الاعتبار ألا يحدث ذلك

إلا بعد أن يتم تجريب جميع الوسائل ؛ لإثارة اهتمام الطفل بمختلف الوسائل التى تتناول تعديل طريقته ، ومراعاة نوع الخبرة المتعلمة وتنظيمها ، وتهيئة الجو التعليمى بطريقة تضمن حدوث التعلم فى جو من المحبة والود ، ثم محاولة فهم الطفل ومشكلاته الخاصة ، فإذا اتضح بعد ذلك كله عدم فعالية هذه الأساليب فى إثارة اهتمام الطفل بالخبرات التى نريد أن نعلمها له ؛ فيمكن اللجوء إلى نوع من العقاب ، على ألا يكون مهينًا للطفل ومهددًا لاعتداده بذاته وصونه لكرامته .

وإذا اتخذ العقاب أسلوبًا مهينًا فى تربية الطفل فربما أدى ذلك إلى كراهية مصدر العقاب ، سواء كان أحد الوالدين أو المربى . وقد تمتد الكراهية لتصل إلى العمل الذى يؤدى إلى العقاب .

وفى الجانب المقابل نجد الرفض التام لاستخدام العقاب كأسلوب وطريقة فى تربية الطفل ، سواء من الوالدين أو من القائمين على أمر تربيته . وقد اقتصرت آراء «ثورنديك» و«سكنر» فى هذا الصدد على استخدام التعزيز الإيجابى فى عملية التعليم . فقد توصلت نتائج البحوث التى قام بها «سكنر» إلى

أن العقاب يؤدى إلى كبت السلوك المرفوض المعاقَب عليه وليس محوه نهائيًّا . ومن نتائجه الضارة تثبيت السلوك المرفوض والاستمرار عليه .

وثمة عامل آخر مرتبط بعملية العقاب ، وهو اتجاه العقاب نفسه . هل يتم من منطلق الحب والخوف على الطفل ؟ أم أنه وسيلة للتعبير عن الكراهية والتشفى والانتقام ؟

وإذا كان العقاب لا يتناسب مع السلوك المعاقَب عليه فقد يفشل كأسلوب فى تقويم سلوك الطفل .

وكذلك يفشل العقاب إذا ما كان عائد السلوك المعاقب عليه محببًا ومرغوبًا فيه ، وأقوى من العقاب ذاته .

كما يخطئ الوالدان حينما يعاقبان طفلهما أمام مجموعة من أقرانه أو أمام ضيوف الأسرة ، حيث يؤثر ذلك فى شخصية الطفل واعتداده بكرامته وبذاته . وقد يفلح هذا العقاب إذا تم بيننا وبين الطفل ، وفهم الطفل أنه لمصلحته ولتقويمه .

ويُلاحَظ أن كثرة العقاب والمداومة عليه تفقدانه قيمته

وأهميته ، وتجعلان الطفل لا يلقى بالًا إلى العقاب ، ولا يهتم به ، ولا يمثل له رادعًا عن السلوك الخاطئ وقد ثبت بالبحث أن الجانحين من الأحداث لم يتعدل سلوكهم نتيجة للعقاب ، بل إن بعض أنواع العقاب البدنى تولِّد فى المعاقَب ميولًا عدوانية نحو الآخرين .

وقد يؤدى الاستمرار فى العقاب كأسلوب دائم فى تربية الطفل إلى شعوره بالإحباط والفشل .

وحتى نضمن فعالية العقاب وأثره فى تقويم سلوك الطفل ينبغى ألا نستخدم العقاب البدنى أو المعنوى عندما يرتكب الطفل خطأ فى التعلم ، ولكن عندما يظهر منه عدم اهتمام أو لا مبالاة . كذلك ينبغى النظر باهتمام إلى الجانب التقويمى فى عملية العقاب ، بمعنى أنه إذا عُوقِب الطفل على سلوك خاطئ أو استجابة خاطئة ، فينبغى تعريفه بعدها مباشرة بالسلوك الصحيح والاستجابة الصحيحة وإثابته عليهما إذا استطاع أداءهما كما ينبغى أن يكون .

وينصح علماء النفس كذلك بعدم استخدام العقاب فى

المواقف التعليمية كلما أمكن ؛ وذلك لأن التجارب أثبتت أن نتائجه غير مضمونة ، إذ ليس ثمة ما يضمن للمعلم أن العقاب سيمنع الطفل المعاقَب من إعادة تكرار العمل المعاقب عليه .

فقد يحدث أن نعاقب طفلًا على خطئه فى حق أحد الكبار المحيطين به بالسب مثلًا ، ثم يتضح لنا أن عقابنا للطفل لم يثمر فى تعديل سلوكه ، وإنما جعله يكتسب عادة أسوأ كردٍّ فعل لهذا العقاب ، وهى العناد والتشدد والحرص على الاستمرار فى السلوك المعاقب عليه .

الثواب والعقاب فى مجال الأسرة

الأسرة هى الجماعة الأولية التى تكسب الطفل خصائصه الاجتماعية الأساسية ، ومنها وبواسطتها يكتسب المعايير الاجتماعية العامة ، وهى الأساليب السائدة أو المقبولة من أنماط السلوك .

ولهذه المعايير أثرها الفعال فى تعديل السلوك الاجتماعى للفرد ، وفى تحديد مسار تنشئته الاجتماعية .

الثواب والعقاب فى محيط الأسرة :

تُوجَد عوامل عديدة ومؤثرة فى توجيه وضبط عمليتى الثواب والعقاب داخل الأسرة .

من ذلك المستوى الاجتماعى والاقتصادى للأسرة ، فبعض أنماط السلوك لا يُعاقَب عليها فى مستوى معين ، بل يتم تشجيعها ويُطَلب المزيد منها ، فى حين هى غير مرغوب فيها فى مستوى آخر ، مثال ذلك الطفل العدوانى الذى يعتدى على الآخرين بالسب أو الضرب قد يجد قبولًا وتشجيعًا فى المستويات الاجتماعية والاقتصادية الدنيا ، فى حين يُعاقَب الطفل المعتدى فى المستويات المتوسطة ، ويُعتَبر سلوكه عدوانيًّا غير مقبول .

كذلك قد تطالب المستويات الدنيا أبناءها بالطاعة المطلقة ويفرضونها على أطفالهم فرضًا ، فى حين تحرص المستويات المتوسطة على إعطاء قدر من الحرية لأطفالها فى القبول أو الرفض لأشياء معينة ، ويزودون أطفالهم بالعادات والتقاليد المرغوب فيها ويعوِّدونهم ضبط النفس .

كما تختلف أنواع الثواب والعقاب فيما بين أسرة وأخرى حسب المستوى الذى تنتمى إليه ، ففى الأسر ذات المستوى الاقتصادى والثقافى المنخفض يُستخدَم العقاب البدنى غالبًا كوسيلة من وسائل الضبط الاجتماعى ، ولكن الأسر التى تنتمى إلى مستويات متوسطة تفضّل العقاب المعنوى أو النفسى فى تأديب أطفالها ، مثل الحرمان من الحب أو عدم الرضا .

على أن هذه الأمور لا تتم بشكل حاسم داخل الأسر المختلفة والمستويات التى تنتمى إليها ، حيث تتدرج وتتفاوت أنواع الثواب والعقاب ، فالثواب يبدأ من مجرد نظرة رضا ، أو إشارة موافقة ، إلى هدية مرغوب فيها ، أو السماح للطفل بممارسة عمل يحبه ، كاللعب بألعاب معينة .

وكذلك الحال بالنسبة إلى العقاب ، فقد يكون بالإعراض عن الطفل فى صورة إشارة باليد أو بالشفتين أو الوجه ، بحيث تعبر عن عدم الرضا والموافقة ، ومن الممكن أن يكون الحرمان من اللعب أو الخروج للمتعة والترويح . وقد يكون عنيفًا قاسيًا كما فى العقوبة البدنية . وهذه العقوبة ذاتها تتراوح بين اللين

والشدة ، فلا تكون عقوبة عارضة فيستهين الطفل بها ولا تحدث أثرها فى نفسه ، وكذلك لا تكون عنيفة قاسية فتزرع الرعب وعدم الثقة والكراهية لمصدر العقاب فى نفس الطفل .

وتتأثر عملية الثواب والعقاب بمدى إشباع الأسرة لمطالب الطفل وحاجاته ، وما يترتب على ذلك من سلوك ، ففى حالة الثواب يتم إشباع حاجات الطفل ، أما فى حالة العقاب فينبغى أن تتوقف الأسرة قليلًا مع الطفل الذى ارتكب سلوكًا غير مقبول فى موضوع إشباع حاجاته وتلبية مطالبه .

ولقد صُنِّفت فئات الآباء بالنسبة إلى مدى تحقيقهم لمطالب أبنائهم وإشباعهم حاجاتهم النفسية إلى أربع فئات متمايزة :

١ - فئة الآباء الذين يشبعون رغبات أولادهم ، ولا يكلفونهم بأية واجبات . ويترتب على هذا السلوك الأنانية وحب الذات وشدة التعلق بالآباء .

٢ - فئة الآباء الذين يشبعون رغبات أولادهم وفى الوقت نفسه يلزمونهم بأداء واجبات وغالبًا ما يؤدى هذا

السلوك إلى تنشئة اجتماعية متزنة ، تعلّم الطفل كيف يطالب بحقوقه ، وفى الوقت ذاته يؤدى ما عليه من واجبات .

٣ – فئة الآباء الذين لا يحققون رغبات أولادهم ، ولا يفرضون عليهم أية واجبات . وغالبًا ما يؤدى هذا السلوك إلى تشجيع وتنمية سلوك اللامبالاة فى نفس الطفل .

٤ – فئة الآباء الذين لا يحققون رغبات أولادهم ، ويفرضون عليهم واجبات صارمة . وينتهى هذا النوع من السلوك بالطفل إلى الشعور بالخضوع والمذلة وهوان النفس .

وتتأثر كذلك عملية الثواب والعقاب بمستوى تعليم الوالدين والتزامهم بالدين ، ففى الأسر ذات المستوى التعليمى المرتفع والحريصة على تعظيم شعائر الدين ، تكون الإثابة بطريقة متزنة وموضوعية ، وليس فيها إغراق للطفل بعبارات المدح والثناء والتعظيم ، ولا بكثرة الهدايا بمناسبة أو من دون مناسبة ، والتى يعتبرها الطفل من وجهة نظره رشوة مقدمة من الأب أو الأم

على أداء عمل المفروض أن يؤديه الطفل من تلقاء نفسه ؛ لأنه من واجباته ومسئولياته . من ذلك النجاح آخر العام ، أو حلّ الواجبات المدرسية ، أو أداء شعائر الدين ، فكثيرًا ما نسمع من الأطفال عبارات ، مثل : «أنا نجحت لكم» أو «مش ها حل لكم الواجب» وكأنه يتفضل عليهم بذلك .

وكذلك يكون الحال فى عملية العقاب ، حيث تكون بالقدر نفسه من التوازن ، فلا عقاب على سبب تافه ولا استعجال فى توقيعه على الطفل ، ثم التدرُّج فى تطبيق العقاب : فمن نظرات عدم الرضا أو الموافقة إلى توجيه اللوم ، ثم لفت النظر إلى موضع الخطأ فى السلوك ، ثم النصيحة المباشرة بالعدول عن الفعل الخطأ وعدم إتيان السلوك المعيب ، ثم العقوبة البدنية المحسوبة إن لزم الأمر . كل ذلك مع التذكير بالله وثوابه وعقابه .

وربما اختلف الأمر فى الأسر ذات المستوى التعليمى المنخفض ، والتى لا تتمسك بتعاليم الدين وآدابه . ومن المحتمل أن تحدث فى هذه الأسر تجاوزات غير مقبولة تربويًّا فى عملية

الثواب والعقاب ، فالإثابة مستمرة حتى تفقد قيمتها ، وعلى أقل عمل يؤديه الطفل ، ويغلب على الطفل فى هذه الحالة النفعية والانتهازية فى السلوك ، فإذا أنجز عملًا ما طالب فى الحال بالمقابل . وإذا عوقب الطفل كان عقابًا ضاريًا شديدًا ، يترك آثاره وبصماته على الحالة النفسية للطفل .

وتتأثر كذلك عملية الثواب والعقاب بتنشئة الآباء وما تربَّوا عليه ، أو ربما يحدث العكس ، فبعض الآباء يعطى الأبناء حرية كاملة ، فلا يلوم أو يعتب على أى سلوك خاطئ ، وإنما يتذكر ما تلقَّاه فى صغره من قسوة زائدة وشدة مؤلمة ، فيدلل أبناءه ، ولسان حاله يقول : «كفاية احنا عذبونا من صغرنا» أو يقول : «أنا حرمت فى صغرى ولا أريد أن أحرم أولادى» .

وبعض الآباء يقسو ويشتط فى قسوته ، ويتجاوز كل الحدود ؛ لأنه تربَّى هو على هذه الشدة ، وأثمرت معه من وجهة نظره ؛ ولذا فهو حريض على أن يربى أولاده بالطريقة نفسها . وكلا الفريقين مخطئ فى تصوره ، فالتربية بأنماطها

العديدة تختلف وتتبدل . صحيح أن هناك «ثوابت» لا يطرأ عليها التغيير ، خاصة فيما يتعلق بقواعد السلوك ، ولكن كل حقبة زمنية تختلف بعواملها ومتغيراتها عن الحقب الأخرى ، فالآباء نشؤوا فى زمن غير الزمن وفى ظروف ربما أصبحت مختلفة تمامًا عن الظروف التى ينشأ أبناؤهم فيها ، هذا بالإضافة إلى حقيقة مهمة ، ربما يغفل عنها الكثيرون من الآباء ، وهى أنهم مختلفون عن أبنائهم فى كثير من الخصائص والسمات ، طبقًا لما بين الأفراد من فروق فردية ، فما كان يناسب الأب فى طفولته ربما لا يناسب الابن فى طفولته .

كذلك قد يجنى بعض الآباء على أطفالهم جناية عظيمة حينما يندفعون بقوة نحو الشدة على الطفل والقسوة عليه ؛ حتى يتعلم ويتفوق ، ولا يضعون فى اعتبارهم مدى استعداد الطفل وملاءمة قدراته لعملية التعليم .

ومن الأخطاء التى تُرتكب فى تربية الأطفال إصرار بعض الآباء على التدخل فى كل صغيرة وكبيرة تخص الطفل ؛ بدعوى الخوف عليه والحرص على مستقبله . ومثل هذا الطفل ينشأ ضعيف الشخصية إلى حد كبير ، لا يثق بنفسه ، كما

سبقت الإشارة إلى ذلك . والصواب أن يعطى الآباء أطفالهم فرصة كافية للاعتماد على أنفسهم واكتساب خبراتهم مع إمكانية التدخل إذا لزم الأمر ، وعجز الطفل عن حل مشكلاته أو أداء دوره .

ويبقى سؤال مهم فى هذا الصدد ، وهو : متى وكيف يثيب الآباء أطفالهم أو يعاقبونهم ؟

وقبل أن نُجيب عن هذا السؤال نبادر بالقول بضرورة أن يدرك الآباء أن الثواب والعقاب من العوامل الأساسية لتنمية السلوك وتهذيبه وتقويمه وإصلاحه عند الطفل وإكسابه القيم المرغوب فيها واللازمة لنموه الاجتماعى .

ولكى نعلم متى يُثاب الطفل ، ينبغى أن نتأمل سلوكه فلا يُثاب إلا على سلوك صحيح ، أو عمل جديد بالنسبة إليه ، فإذا أعطى الطفل لعبته لطفل من ضيوف الأسرة كى يلعب بها ، فينبغى أن نشجعه ونعلمه كيف يؤْثِر الآخرين على نفسه، ولا يصح أبدًا أن نكافئ الطفل ؛ لأنه أكل طعامه ، أو حافظ على لعبته ، أو نطق بألفاظ مستحبَّة ، وذلك لأن المبدأ العام

الذى ينبغى أن نتبعه ونطبقه هو : «أنه لا يجوز إثابة الطفل على عمل يجب عليه أداؤه» ؛ لأن ذلك يجعله شخصًا نفعيًّا ماديًّا ، لا يؤدى عملًا إلا إذا أخذ المقابل .

وبينت الدراسات الحديثة التى أجراها عالم النفس الأمريكى «سكنر» أن المكافأة التى تحدث بعد فترات مختلفة غير محددة عقب القيام بالاستجابة المطلوب تعلُّمها تزيد من قوة تعلم هذه الاستجابة ، وتزيد من صعوبة انطفائها ، ومن أمثلة النتائج التطبيقية لهذه النتيجة أن مكافأة المدرس للتلاميذ لأدائهم واجباتهم المدرسية فى الفصل ، إذا أتت على فترات مختلفة غير محددة وغير معروفة أثناء أدائهم لهذه الواجبات ؛ تؤدى إلى زيادة نشاطهم واهتمامهم فى أداء واجباتهم ؛ انتظارًا للحصول على المكافأة التى يتوقعون أن تأتى فى أى وقت غير محدد .

وقد ذكر هذه النتائج النبى ﷺ قبل اكتشاف «سكنر» لها بأربعة عشر قرنًا من الزمان ، فقد قال رسول الله ﷺ :

«إن فى الليل لساعة لا يوافقها رجل مسلم يسأل الله تعالى - خيرًا من أمر الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه ، وذلك

كل ليلة» .

وقال عن يوم الجمعة :

«إن فيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم وهو قائم يصلى يسأل الله شيئًا إلا أعطاه إياه» .

ففى هذين الحديثين نجد تطبيقًا عمليًّا فريدًا من نوعه لمبدأ التدعيم الذى يحدث بعد فترات زمنية مختلفة غير محددة ، يدل على معرفة الرسول ﷺ بطبيعة السلوك الإنسانى وعلى حكمته فى استخدام مبادئ فعالة فى تعديل السلوك الإنسانى .

ومتى نعاقب الطفل ؟ نعاقب الطفل على ارتكاب الخطأ فى السلوك من فعل أو قول ، وينبغى أن نعلم هل الطفل أدرك خطأه أم لا ؟ وهذا يعنى ضرورة التمييز بين الصواب والخطأ ؛ حتى لا يشعر الطفل بالظلم .

ويجب توقيع العقاب بعد ارتكاب الخطأ مباشرة ، ثم ننتظر فترة ليسترد فيها الطفل هدوءه ويستقر انفعاليًّا ، ثم نبصره بخطئه ونوضحه له ؛ حتى لا يتكرر منه مرة أخرى ، وبعدها ننسى هذا الخطأ فلا نذكّر الطفل به أو نوبخه عليه ؛ وذلك لأن تكرار

اللوم والتوبيخ يجعل الطفل متألمًا فى أول الأمر ، ثم يظهر عليه الضيق ، وتنشأ كراهيته لمصدر التوبيخ ، سواء كان الأب أو الأم ، ثم يصل إلى مرحلة اللامبالاة وعدم الاهتمام ، وفى تلك الحالة لا يبالي الطفل بأى ذنب أو خطأ يرتكبه ، وبذلك نسىء إلى الطفل من حيث أردنا أن نحسن إليه .

وأحيانًا يُسرِف بعض الآباء فى تهديد طفلهم ويتوعدونه بأنهم سيفعلون كذا وكذا ، ثم لا ينفذون تهديدهم ، فتسقط هيبة السلطة الوالدية ويفقد كلام الآباء مصداقيته عند الأطفال ، ولذلك حينما يلجأ إلى العقاب فيجب ألا يكون قاسيًا حتى لا يضر بشخصية المتعلم . وإذا كان من الضرورى فى بعض الأحيان استخدام الضرب فى العقاب ، فيجب أن يكون هينًا وغير قاسٍ ، مسترشدًا بقول النبى ﷺ : «إن الله رفيق يحب الرفق ، ويعطى على الرفق ما لا يعطى على العنف» . ونهى النبى ﷺ عن الضرب على الوجه ، فقال ﷺ : «لا يضربن أحد الوجه» . وقال : «إذا ضرب أحدكم فليتقِ الوجه» . وقد أخذ المربون المسلمون الأوائل التوجيه النبوى

فأوصوا باستخدام الثناء والتشجيع فى تربية الطفل ، ونهوا عن العقاب بالضرب إلا فى الحالات النادرة .

أما كيف نثيب ؟ فذلك أمر فى غاية الأهمية ؛ إذ يتعين على الآباء أن يعوِّدوا أبناءهم على أن الثواب ليس غاية فى حد ذاته ، وإنما هو وسيلة نبنى من خلالها القيم الصحيحة وننميها .

كذلك ينبغى ألا يعد الآباء بمكافأة أو حافز للطفل إذا هو تفوَّق فى دراسته على أقرانه ، ثم ينسوا وعودهم بعد أن يتحقق المطلوب .

وعند الإثابة تُفضَّل فى معظم الأحوال الإثابة المعنوية على الإثابة المادية ، كالرضا والقبول وبسط أسارير الوجه وكلمات الشكر والثناء ، وغيرها من المعانى . وبذلك نرتقى به بعيدًا عن النفعية المادية .

وكيف نعاقب ؟

تمر العقوبة البدنية بمراحل ذكرها علماء التربية مما سنوضحه فى موضعه ، ومن الأفضل توقيع العقوبة المعنوية أولًا ، وهذه لها خطواتها ومراحلها . ويخطئ بعض الآباء حينما تسبق أيديهم

ألسنتهم فى تأديب أطفالهم ، ويبدو الأمر غريبًا حينما ينفعل الآباء بشدة عند عقاب أطفالهم ويعلو صياحهم ، وربما انتابت أحدهم حالة من الهياج العصبى ، فيضرب ابنه ضربًا مبرحًا ، ثم يعود ويندم وقت لا ينفع الندم .

ومن أخطاء الآباء فى العقوبة : إجبار الطفل على الاعتذار بعد توقيع العقوبة مباشرة ؛ لما لذلك من أثر فى شخصية الطفل وشعوره بالضعة والذلة والهوان .

الثواب والعقاب فى مجال المدرسة

اختفلت الآراء كثيرًا خول قضية الثواب والعقاب فى المدرسة ، فكثيرًا ما نرى بعض المدرسين يعاقب تلاميذه بهدف ردعهم على طريق العلم والتعلُّم ، على حين نرى بعضًا منهم يسرف فى استخدام الثواب ، ويرى أن القسوة البالغة تحط من قدر الطفل ، وتجعله خنوعًا أو معاندًا متمردًا أو خائفًا مترددًا .

وفريق ثالث يرى ضرورة التوسط بين الثواب والعقاب دون

تحيز لجانب دون آخر .

وحتى نصل إلى إجابة عن هذه التساؤلات ، نقرر فى البدء أن التربية الحديثة تقوم على أساس رفض العقاب بأنواعه وصوره كافة ، وتتخذ من اللين والتسامح أسلوبًا سائدًا فى تربية الطفل ، وإذا اضطر المعلم إلى العقاب فينبغى أن يكون فى أضيق الحدود ، وبصورة لا تترك أثرًا فى شخصية الطفل ونفسيته .

وهناك مجموعة نقاط أساسية ينبغى وضعها فى الاعتبار عند اتخاذ العقاب أسلوبًا للضبط داخل الفصل الدراسى :

أولًا: أن العقاب ليس هدفًا فى حد ذاته ، وإنما هو وسيلة لتصحيح سلوك خاطئ وتقويم استجابة غير متكاملة لدى التلميذ .

ثانيًا: من الضرورى أن يدرك التلميذ المعاقَب الهدف من وراء العقاب ، وهو الحرص على مصلحته والأخذ بيده على طريق التعلم ، وذلك من خلال الطريقة التى يعاقب المدرس بها ، والحالة النفسية العامة للمدرس حينما يشرع

فى العقاب ، وليحذر المدرس أن يستشعر التلميذ نية الانتقام أو الحرص على القصاص منه .

ثالثا :أن يتناسب العقاب مع حجم الخطأ الذى ارتكبه التلميذ ونوعه ، دون زيادة فى القسوة أو نقصان ؛ وذلك لأن التلميذ إذا استشعر الزيادة فى العقاب تَولَّد لديه شعور بالاضطهاد والغبن ، وبالقدر نفسه لو كان العقاب غير متناسب مع حجم الخطأ ، وأدرك التلميذ هذا التهاون ، استمر فى خطئه ، وربما تردَّى فى هوَّة الانحراف والجنوح .

رابعًا: أن يدرك المدرسون أن تلاميذهم متفاوتون مختلفون ، فالتلميذ الذى لا يصلحه إلا الضرب ، يختلف عن ذلك الذى تردعه النظرة الغضبى ، وأن العقاب الذى يتناسب مع خطأ بعينه ربما لا يصلح لاستخدامه مع خطأ آخر ، وأن طريقة بعض المعلمين فى استخدام العقاب تختلف من واحد إلى آخر .

خامسًا:ألا يتسرع المدرسون بإنزال العقاب على تلاميذهم دون

أن يتأكدوا من أنهم يستحقون هذا العقاب بالفعل ، وذلك لأنه إذا لم يكن العقاب فى موضعه فإن التلميذ سيشعر بالاضطهاد والظلم ، ومعه الفصل كله .

سادسًا: ينبغى أن ينتهى العقاب بانتهاء الموقف الذى أدَّى إليه ، فلا يصح معايرة التلميذ به ، أو تذكيره بالخطأ الذى عُوقِب من أجله ، وأن ينتبه المدرسون جيدًا لما يحدث أحيانًا من معايرة التلاميذ لبعضهم بسبب العقاب ونوعه ؛ لأن ذلك يعوق سير التلميذ فى الطريق الصحيح .

سابعًا: أن العقاب واجب لتصحيح سلوك الفرد لصالح الجماعة . والمدرس حين يعاقب على الخطأ فهو جزء من جماعة كبرى لديها الإحساس بالمسئولية الاجتماعية ، فلا ينبغى أن يكون العقاب طبقًا لأهوائه الخاصة ، أو رغبة لمنفعة يريدها .

ثامنًا : إذا كان العقاب على الخطأ أمام الجماعة بهدف الحد من انتشار السلوك الخاطئ ، فينبغى أن يكون الثواب أمام

الجماعة أيضًا ، وعلى الملأ نفسه ؛ حتى يمكن تدعيم السلوك الإيجابى وتعزيزه .

تاسعًا: من الضرورى أن يدرك المدرس والتلميذ معًا المعنى التربوى للعقاب ، ذلك بتوضيح الموقف وعناصره كاملًا بعد أن ينتهى أثر العقاب ؛ حتى لا يفقد المدرس أواصر المودة بينه وبين تلاميذه .

عاشرًا: من الأفضل أن نحيط أولياء الأمور علمًا بالموقف العقابى وسبب لجوء المدرس إليه ؛ وذلك لضمان استمرار تصحيح السلوك الخاطئ وتجنُّب تكراره مستقبلًا .

ومن أنواع العقاب التى تُستخدم فى الفصل الدراسى العقوبة البدنية ، وتُعتَبر أسوأ أنواع العقاب ، ليس لأثرها الجسمى فقط ، ولكن لآثارها النفسية ، وما ينجم عنها من شعور بالمذلة والهوان ، وربما تؤدى إلى العناد والاستمرار على الخطأ .

ويلجأ بعض المدرسين إلى العقوبة المعنوية ، وتكون بتوجيه عبارات اللوم والاستهجان فى غير سوء ولا فحش ، وينبغى أن

تكون بحذر شديد ؛ حتى لا تفقد قيمتها . وأحيانًا يستخدم بعضهم العقوبة المشتملة على الضغط الاجتماعى ، كعزل التلميذ المخطئ لفترة من الوقت عن مجموعته ، أو تذنيبه بالوقوف لفترة قصيرة ، أو حرمانه من المشاركة فى عمل جماعى لفترة محدودة أيضًا .

ومن الملاحظ أن بعض المعلمين يبالغ فى استخدام العقوبة البدنية ، فعصاه لا تفارق يده ، وحجته فى ذلك أن الآباء والأمهات يضربون أبناءهم . وهذا تبرير للخطأ بخطأ آخر .

وربما يكون لدى بعض المعلمين شعور دفين بالنقص ، فيعوض نقصه بالقسوة الزائدة على تلاميذه ، وقد تكون الشدة الظاهرة فى سلوك بعض المعلمين تخفى وراءها ضعفًا كبيرًا ، فإذا كان لدى المعلم شعور بالذنب (عقدة ذنب) فإنها ربما تظهر فى هيئة عقاب للذات أو عقاب للغير ، وقد يكون سر القسوة لدى المعلم بعض المشكلات الشخصية : كالضائقة المادية أو ضعف المرتبات ، فيلجأ إلى القسوة ؛ كى يجبر تلاميذه على الدروس الخصوصية أو المجموعات المدرسية ، ولا

يبالى إن كان التلميذ قادرًا ماديًّا أم لا .

ولحل هذه المشكلة يتعيَّن على المسئولين الاهتمام الزائد بالحالة النفسية للمدرسين . ولنسألْ : لماذا لا يُوقَّع «كشف نفسى» على المعلم كما يجرى عليه نظام الكشف الطبى ؟ وينبغى أن تتسع دائرة تجربةْ «الإخصائى النفسى المدرسى» فتُعمَّم فى جميع مراحل التعليم ، ويمتد دوره ليشمل رعاية المعلمين نفسيًّا وتربويًّا .

ولا يفوتنا التركيز بشدة على ضرورة أن يصبح «الضبط الذاتى» لدى التلاميذ سلوكًا تلقائيًّا من ضمائرهم وذلك بتربية الوازع الدينى والخُلقى فى نفوسهم فيكون التلميذ رقيبًا بنفسه على نفسه . وأهم ما يميز التربية الإسلامية هو ذلك الضمير المستمد من مخافة الله – تعالى – بعد معرفته حق المعرفة ، حتى يصبح سلوك المسلم صادرًا عن وحى الضمير فى السرِّ والعلانية .

* * *

النمو النفسى للطفل وصلته بقضية الثواب والعقاب

تتكون شخصية الطفل من ثلاثة أقسام :

الأول : قسم غريزى به الحاجات التى تحتاج إلى إشباع ، وهو فطرى ويُولَد الطفل مزودًا به .

الثانى : العادات والتقاليد ، وأوامر الآباء والأمهات والمعلمين المستمدة من الدين والعرف .

الثالث : الضمير الخلقى للطفل ، وهو يقوم بوظيفة الرقيب ، وهو النفس اللوَّامة التى عناها القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿لا أقسم بيوم القيامة . ولا أقسم بالنفس اللوَّامة﴾

وهو النفس الأمارة التى أشار إليها القرآن بقوله تعالى : ﴿وما أبرىء نفسى إن النفس لأمارة بالسوء إلا من رحم ربى﴾

ولكى تتحقق صحة الطفل النفسية فلابد له أن يوازن بين حاجاته المتنوعة ومطالبه الخاصة ومطالب البيئة التى يعيش فيها ، ومطالب الدين ، وهل يستطيع الطفل - وهو لم يزل طرىَّ العُود - أن يحقق مسألة التوازن هذه ؟

والإجابة ، أن عملية التوازن تتم فى الطفولة المبكرة عن طريق الأم والأب ، باعتبارهما بيئة الطفل الأولى ، ثم تمتد هذه البيئة لتشمل المدرسة والمجتمع وقيمه وعاداته وتقاليده ومحددات سلوكه وتعاليم دينه .

وتؤثر فى صحة الطفل النفسية مؤثرات عديدة مثل : الأسرة ، وجماعة الأقران ، والمدرسة ، ودور العبادة ، ووسائل الإعلام .

فالأسرة هى البيئة الأولى التى يتلقى الطفل فيها مبادئ الثواب والعقاب ، وجماعة الأقران يأخذ عنهم بعض أبعاد النمو الاجتماعى ، والمدرسة هى مؤسسة التطبيع الاجتماعى المنظم ، والمسجد هو مكان العبادة ، ومن خلاله يتعلم الطفل كيف يأتمر بأوامر الدين وينتهى عن نواهيه ، ووسائل الإعلام المرئية

والمسموعة والمقروءة ، تعطى النموذج والمثل ومحددات وضوابط السلوك القويم .

مفهوم الذات عند الطفل

يتكون مفهوم الذات عند الطفل من خلال تفاعله مع البيئة الاجتماعية المحيطة به ، وينشأ مفهوم الذات على أربعة مستويات :

١ - **المستوى الأول** : وهو مستوى صِغار الأطفال ، ويشتمل على مرحلة السلوك الغريزى الذى يتعدل بتأثير «اللذة والألم» ، فالسلوك يثبت ويقوى فى اتجاه اللذة ، ويزول ويضعف فى الاتجاه الذى يسبب الألم ، مثال ذلك : إذا أجاد الطفل فى نطق بعض الكلمات فى سورة من سور القرآن الكريم ، أو فى قطعة محفوظات وتم تشجيعه وإثابته بإعطائه قطعة حلوى ؛ فإنه يحرص على تكرار هذا السلوك ويتثبت لديه ويقوى . ويتلاشى السلوك ويضعف حينما يعقبة الألم ، فمثلًا لو أمسك الطفل عودًا من أعواد الثقاب (الكبريت) وأشعله ، ثم شعر بالألم

نتيجة قرب النار من أطراف أصابعه فإنه لن يعود لمثلها .

٢ - **المستوى الثانى** : وهو مستوى تعديل السلوك بالثواب والعقاب اللذين يُمنَحهما . وفى هذا المستوى يثاب الطفل على الفعل الصواب ، ويُعاقَب على الفعل الخطأ ، فيتم تعزيز السلوك المثاب ويقوى ويتكرر ، ويضعف السلوك الخطأ ، وتحدث عملية الكف والرجوع عنه .

٣ - **المستوى الثالث** : وهو مستوى تعديل السلوك بالمدح والذم .

وفى هذه المرحلة يُكوِّن الفرد فكرته عن ذاته وفهمه لنفسه من رضا الآخرين وتشجيعهم ، أو سخطهم وعدم رضاهم .

وعادة ما تكون الإثابة مصحوبة بالمدح والثناء ، أما العقوبة فتكون مصحوبة بالذم والسخط واللَّوم .

٤ - **المستوى الرابع** : وهو مستوى المبادىء والمُثل العليا ، وفى هذه المرحلة يعمل الإنسان طبقًا لما يمليه عليه ضميره ، وما تفرضه عليه مثالياته وأخلاقه . وهذه المرحلة تتم دون أى اعتبار

للمدح أو للذم من الوسط الذى ينتمى إليه .

ونلاحظ فى المستوى الأول : أن الطفل كائن حى تُسيِّره دوافعه وحاجاته ، وتغلب عليه البراءة والفطرة فى السلوك ، ولكنه سرعان ما يتعلم أن بعض الأشياء المحيطة به لها خصائص ضارة : فالنار تحرق ، وسلك الكهرباء خطر على حياته ، فيسيطر الطفل على سلوكه ؛ خوفًا من نتائج الأفعال التى تقع عليه .

وفى المستوى الثانى : تنمو شخصيته ويمكن محاسبته على نتائج سلوكه سواء كانت سالبة أو موجبة . فالسلوك الصواب يتم تشجيعه وإثابته والحضُّ عليه ، والسلوك الخاطئ نلوم عليه الطفل وننهره ، ونعاقبه إذا لزم الأمر .

وفى المستوى الثالث : تتسع دائرة الطفل الاجتماعية ويشعر بنفسه كعضو فى جماعة ، وعليه مسايرة سلوك الجماعة وعدم الاختلاف معها ، والجماعة ذاتها تكون له بمثابة المرجع فى الحكم على سلوكه ، فإذا مدحته وأثنت عليه فإن ذلك يعنى القبول للسلوك والموافقة عليه ، أما إذا حدث غير ذلك فإنه

الرفض للسلوك وعدم الرضا عنه .

والمستوى الرابع : وهو مرحلة المُثُل والمبادئ والمثاليات ، فالفرد يخضع لمبدأ ومثل أعلى ، كوَّنه لنفسه من دينه وخلقه وقيمه ، فلا يهمه إذًا رضَى الناس أم سخطوا ، طالما أنه راضٍ عن ذاته متقبِّل لها . ولا يهم كذلك مدحوه أم ذموه ، لأنه يخضع لعقيدة ثابتة ، ولمبدأ قويم اقتنع به قناعة كاملة ، وهو مرحلة تتناسب مع سن الرشد والشباب .

وبذلك يمكن القول بأن مفهوم الطفل عن ذاته وتقديره لها ، يتكون عن طريق صلته بالآخرين ، وبالمجتمع بصفة عامة ، وكذلك من ضميره الخلقى وعقيدته التى تمثِّل الرقيب المسئول عن الشخصية ، وهو صمام الأمن للنمو النفسيِّ السليم للطفل .

الحاجات النفسية للطفل كمحددات لسلوكه

هناك تقسيمات عديدة للحاجات النفسية ، من أهم هذه

التقسيمات ما قدمه «ماسلو» من نظريته فى تقسيم الحاجات ، حيث جعلها فى شكل هرمى ، قاعدته الحاجات الفسيولوچية ، تعلوها الحاجة إلى الأمن والطمأنينة ، ثم الحب ، ثم التقدير أو القيمة والاحترام ، ثم الحاجة إلى المعلومات ، ثم الحاجة إلى الفهم ، ثم الحاجة إلى تحقيق الذات .

وتُعنَى التربية الإسلامية بإشباع هذه الحاجات النفسية منذ الطفولة الباكرة ؛ نظرًا لدورها فى التربية الوجدانية والخلقية والاجتماعية ، ولارتباطها الوثيق بعملية الثواب والعقاب فى تربيته .

فإذا أخذنا – مثلًا – الحاجة إلى الأمن : نجد أنها من أهم الحاجات الوجدانية التى تسهم فى تكامل شخصية الطفل واستقرارها ، حيث إنها حاجة نفسيَّة أساسية لا يتقدم الطفل بسهولة فى ميدان ما إلا إذا اطمأن وشعر بالأمن فى شئونه الحيوية . وفقدان الأمن يترتب عليه القلق والخوف وعدم الاستقرار . والطفل فى سِنِى عمره الباكرة ترتبط حاجته إلى الأمن بإشباع الحاجات الفسيولوچية الأساسية ، من غذاء ونوم

وغيرهما ، ولذلك ربط القرآن الكريم بين هذه الحاجات الجسمية كالطعام وبين الحاجات النفسية كالأمن ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف﴾

ولذلك نجد القرآن الكريم يؤكد على ضرورة رضاعة الطفل حولين كاملين - كما أشرنا - وذلك لأن الطفل يستقى من ثدى أمه كل ما يحتاج إليه من الأمن الانفعالى ، من خلال اتصاله الوثيق بها . ومن أكثر العوامل خطورة على أمن الطفل النفسىّ انفصاله عن أمه وحرمانه منها ؛ لأن ذلك يؤدى إلى اكتئابه وحزنه الدفين لهذا الغياب . ولأجل ذلك حذَّر الرسول الكريم ﷺ من هذه العاقبة ، حيث قال : «ملعون من فرق بين والدة وولدها» .

والطفل الذى ينشأ بعيدًا عن أمه يعانى من القلق وعدم الاطمئنان وعدم القدرة على التحكم فى دوافعه ، وقد يكون سلوكه عدائيًّا ، وتكثر لديه التوترات الانفعالية والمشكلات السلوكية . وفى سبيل إشباع حاجة الأمن فى نفس الطفل ،

تحرص التربية الإسلامية على ألا يكون الطفل مجالًا للمنازعات بين الوالدين ، وتحث على ضرورة الرضاعة الطبيعية ، والقضاء على بواعث الخوف والتهديد فى نفس الطفل ، قال تعالى : ﴿لا تُضار والدة بولدها﴾

وكذلك الحاجة إلى القبول ؛ ليشعر الطفل بأنه مرغوب فيه ، ومقبول من الآخرين . وإن فكرة الطفل عن نفسه ومفهومه لذاته إنما تتكون من فكرة الآخرين عنه ، ومدى تقبُّلهم له ، وتدرك التربية الإسلامية للطفل هذه الحاجة ، حيث يوصى النبى الكريم ﷺ بتحرى العدل بين الأبناء والمساواة بينهم ، فلا تفضيل لجنس على آخر ، ولا لولد على ولد . ومن هديه ﷺ فى ذلك قوله : «إن الله يحب أن تعدلوا بين أولادكم حتى فى القُبَل» .

والطفل لديه الحاجة إلى التقدير الاجتماعى ، وتعنى هذه الحاجة أنه يحتاج إلى تقدير واحترام الكبار والمحيطين به عندما يسلك سلوكا إيجابيًّا معينًا ، كما يحب أن يعامل على أنه شخصية

ذات قيمة ولها دور تؤديه . والرسول ﷺ كان يشجع على ذلك ، فى مثل قوله ﷺ : «لا يكن أحدكم إمعة ...» ، كما كان ﷺ يُشبع عند صحابته هذه الحاجة ، وهى الحاجة إلى اعتبار الذات واحترامها . ومن هدى الرسول الكريم ﷺ فى ذلك أنه كان يمر على الأطفال فيلقى عليهم تحية الإسلام . ومما يُروَى عنه أنه أتى على غلمان يلعبون فسلّم عليهم . وفى حديث يرويه أنس – رضى الله عنه – من قوله : **«كان النبى ﷺ ليخالطنا حتى يقول لأخ لى صغير : يا أبا عمير ما فعل النُّغَيْر ؟»**.

«والنُّغَيْر» طائر صغير مات لهذا الطفل ، وإن موت طائر صغير لصبى ليس بالحدث الذى يشغل الناس ويهمهم ، ولكن الرسول الكريم ﷺ حين علم بهذا النبأ أدرك بنفاذ البصيرة أن ذلك حدث جليل عند الصبى ، فقرر مواساته ، وفى هذا تقدير له وتعاطف معه . ومن هديه ﷺ ما رواه أبو هريرة – رضى الله عنه – من أن رسول الله ﷺ كان يُؤتَى بأول الثمر فيقول : «اللهم بارك لنا فى مدينتنا وفى ثمارنا وفى مُدِّنا وفى صاعنا بركة مع بركة» . ثم يعطيه أصغر من يحضره من الولدان .

ونتأمل جوانب العظمة النفسية فى شخصية الرسول الكريم ﷺ فى المواقف الثلاثة ، فى الموقف الأول : إلقاء تحية الإسلام على الأطفال ، وهى تحية الكبار الراشدين ، وما فى ذلك من تقدير لهم وإعلان من عالَم الكبار بأنهم على وعى وفهم وتقدير للناشئين الصغار . وفى الموقف الثانى : مواساة الطفل الصغير ومشاركته حزنه وعلى أى شيء ؟ على طائر صغير مات . وهذا ما ينبغى على الآباء والمربين أن يعوه ، وما يجب أن تكون عليه روح التوجيه للطفل من اهتمام صادق وإقبال شامل وتعبير رقيق . والموقف الثالث : مشاركة الطفل الصغير فى البهجة والسرور والفرحة ببشائر الخير . وفى فرحة الطفل دعوة له بالدخول فى دائرة العمل المثمر البنَّاء .

وحاجة الطفل إلى الإنجاز والنجاح : حيث يسعى الطفل دائمًا إلى البحث والاستكشاف وفيه غريزة حب الاستطلاع ، وهذه الحاجة أساسية لتنمية شخصيته وتوسيع مداركه ؛ ولذا فإن الطفل فى حاجة مستمرة إلى التشجيع والثناء من الكبار المحيطين به . ونجاح الطفل فى إنجاز ما يسند إليه من أعمال ،

سواء من الوالدين أو المربى ، يدفعه إلى المزيد من النجاح إذا وجد الاستحسان والتشجيع ، وذلك يدفعه إلى أن يكسب الثقة فى نفسه وفى قدراته على الإنجاز والنجاح .

وقد اهتم المربُّون المسلمون بتشجيع الطفل على النجاح ؛ لأثر ذلك فى تعديل سلوكه ، مع مراعاة التوسط والاعتدال فى عملية التشجيع والإثابة : «فبقدر ما يُعتبَر الثواب أو المكافأة من الوسائل المهمة فى تنشيط دافعية الفرد نحو تحقيق الأهداف فى كثير من المواقف ، بقدر ما يُعتبَر سوء استخدام المكافأة من العوامل التى تؤثر فى سلوك الأفراد ، وبالتالى فى تحقيق التعلم» .

والطفل كذلك فى حاجة إلى تعلم المعايير الأخلاقية والسلوكية ، وتمثل هذه الحاجة معالم النمو الاجتماعى للطفل ، حيث تشتمل هذه المعايير على القيم الدينية ، والخلقية والاجتماعية ، كما تتضمن العادات والتقاليد والأعراف السائدة .

والأسرة هى البيئة الأولى التى تُستقى منها المعايير الأخلاقية والسلوكية ، فهى التى تُعطى الطفل أول دروس الدين ومعالم

العقيدة الصحيحة ، قال ﷺ : «كل مولود يُولَد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه» .

والفطرة تعنى الإسلام ، ومن معرفة الدين يعرف الطفل الحلال والحرام ، والخير والشر ، والحق والباطل ، وكذلك تؤدى جماعة الرفاق والأقران والمسجد والمدرسة الدور نفسه فى إكساب المعايير والقيم الخلقية والدينية .

وأخيرًا إن الطفل فى حاجة إلى سلطة ضابطة موجهة لسلوكه وضابطة لتصرفاته فى توازن واعتدال ، فالطفل فى حاجة إلى التشجيع والتقدير ، ولكن بدون إسراف وإلا أدى ذلك إلى أن يصبح الطفل مغرورًا متعاليًا ، يطلب باستمرار الإثابة والمكافأة . ولقد اهتم المربُّون المسلمون بهذه الحاجة وأقرُّوا بأن الطفل لا يُثاب على كل عمل يؤديه ، وبخاصة ما يكون من صميم دوره ، وأن الإثابة تكون فى مواقف بعينها ؛ وذلك حتى لا تصبح «رشوة» فى نظر الطفل ، وتفقد قيمتها كموجه ومعزز للاستجابة الناجحة والسلوك الصحيح .

مشكلات الطفل النفسية

من المشكلات النفسية المترتبة على اضطراب أساليب الثواب والعقاب وتهديد أمن الطفل واستقراره النفسيّ ؛ مشكلة التبول اللاإرادى عند صغار الأطفال . وتظهر هذه المشكلة إذا تجاوز الطفل عامه الثالث و لم يضبط عملية الإخراج أثناء نومه ، ومن مسبباتها : الخوف من التهديد المستمر بالعقاب ، أو قسوة العقاب إذا وقع على الطفل . وقد يكون الخوف عنصرًا فى انفعال آخر : كالغيرة الناتجة من عدم العدل بين الأبناء ، وتهديد الطفل بعدم إثابته ماديًّا ومعنويًّا . وخطورة هذه المشكلة أنها تؤدّى إلى ظهور العناد والرغبة فى التخريب لدى الطفل ، كما تزرع فى نفسه الميل إلى العدوانية والانتقام .

وبعض الأطفال يعانون من بعض الحركات والأزمات العصبية التى تحدث بشكل متكرر ، كَرَمْش العين وقرض الأظافر ، ومن أسبابها ضرب الطفل وهو فى حالة عصبية

ونفسية سيئة ، كأن يكون غضبان لحرمانه من شيء معين ، كذلك تناقض الأب والأم وعدم اتفاقهما على طريقة واحدة فى الثواب والعقاب ، فإذا عاقب الأب طفله تُسارع الأم فى اللحظة نفسها بالإثابة والحنو والعطف ، وهذا من الأخطاء التى نرتكبها فى حق أطفالنا .

وكذلك مشكلة العدوان ونوبات الغضب والصراخ التى تنتاب بعض الأطفال ، ويكون السبب فيها إرغام الطفل على الطاعة ؛ لمجرد الطاعة دون إقناع ، ودون أدنى تقدير لذاته ، والتعامل معه كآلة صمَّاء : إذا أردناه لاعبًا أو متحدثًا فليكن ، وإذا لم نُرِدْ فينبغى أن يتوقف فورًا وإلا عُوقِب أشد العقاب . وهذا الأسلوب يغرس فى نفس الطفل الكراهية التى تشتد فتصل إلى العدوانية المُوجهة ضد الآخرين ، أو نوبات الغضب والبكاء .

ومن بين أسبابها كذلك أن تكون الأم عصبية سريعة الغضب حادة الانفعال متقلبة المزاج ، فإما أن تعامل طفلها بشدة وقسوة ، وإما أن تعامله بلا مبالاة أو اهتمام ، وفى كلتا

الحالين لا تستطيع أن تفهم طفلها ، أو حتى تدخل مجرد الدخول إلى عالمه الصغير .

كذلك المعاملة الأسرية الصارمة التى تفرض على الطفل الحساب العسير على كل عمل أو نشاط يقوم به ، وهذه المعاملة قد تدفع الطفل إلى التحدى والتمُّرد ، ثم إلى العنف وحِدَّة الطبع ، أو تدفعه إلى الخوف أو الانطواء ، وغير ذلك .

ومن مُسبِّبات العدوان أيضًا فى نفوس أطفالنا الاعتراض على كل فعل يفعله الطفل دون مبرر معقول ؛ مما يثير فى نفسه السخط والاستياء . وليس معنى هذا أن نتساهل مع الطفل إذا أخطأ ، ولكن فقط ننذره بالعقاب لتفادى الخطأ. فإذا ما أخطأ عُوقِب على الفور وفق الشروط التى سبق تفصيلها .

كذلك اضطرابات النوم من بين أسبابها الخوف من العقاب والتهديد المستمر به ، فينام الطفل نومًا متقطعًا ، ويتقلب فى فراشه أو يتكلم بصوت مسموع ، أو يرى أحلامًا مزعجة . والحلم عند الطفل فرصة لظهور الرغبات المكبوتة ، فتعبر عن نفسه تعبيرًا صادقًا إلى حدٍّ كبير ، والمحتويات الظاهرة للحلم

ما هى إلا رموزًا لأشياء أخرى ، فإذا قسا الأب على طفله فضربه ، فإن عاقبة الضرب الغضب وحِدَّة الانفعال ، ولا يستطيع الطفل أن يوجه غضبه مباشرة نحو الأب ، ذلك إذا كان الطفل فى السابعة من عمره ، وحينئذٍ يضمر الطفل كراهية مكبوتة للأب ورغبة قوية فى الانتقام منه ، فينام ويرى فى حلمه أنه قتل أسدًا أو قضى على ثعبان ضخم ، أواغتال ملكًا أو زعيمًا ، وهذه كلها صور دالة على الأب ، ولها مدلولاتها النفسية .

وبعض الأطفال يعانى من مشكلات التغذية وإشباع حاجته إلى الطعام ؛ والسبب فى ذلك ربما يرجع إلى أن الأم تعودت أن تكافئ الطفل إذا ما تناول إفطاره أو إذا أكل فى مواعيد الوجبات المقررة ، ففى المرة التى لا يُكافأ فيها ، تعزف نفسه عن الأكل وتضعف شهيته ، كذلك ينفعل بعض الآباء ويعاقبون أطفالهم على قلة الأكل ؛ فيزجرونهم أو يضربونهم ، دون أن يكلفوا أنفسهم عناء البحث عن الأسباب التى أدَّت إلى ضعف شهيتهم ، وربما كان السبب جسميًّا أو نفسيًّا ،

أو جاء السبب من أقرب الناس إلى الطفل (والده ووالدته) حينما يهتمون به اهتمامًا زائدًا ، أو يهملونه إهمالًا تامًّا .

ومن المشكلات النفسية أيضًا مشكلة الخوف ، وضعف الثقة بالنفس ، ومن أخطر أسبابها استثارة الطفل وتخويفه ؛ بهدف الهدوء وحفظ النظام ، أو لدفعه لأداء واجباته المدرسية ، وخوف الطفل يجعله يكف عن اللعب ، فى حين أن اللعب هو الأسلوب الأمثل لنمو الطفل جسميًّا ومعرفيًّا ونفسيًّا واجتماعيًّا ، وبذلك نحرمه من فرصة النمو النفسى السليم .

ويخطئ كثير من الآباء والمعلمين حينما يظنون أن الخوف والتهديد بالعقاب هما الأسلوب الأمثل لتربية الطفل وتأديبه ، وكثيرًا ما نسمع من أحد الآباء قوله : «إننى أعامل أولادى بالنظر إليهم فقط ، أى أعاقبهم بالخوف» . وهذا من أضر الوسائل المتَّبعة فى تأديب الأطفال ، فبمجرد أن يغيب الأب «المُرعب» أو يغفل عن الطفل تخرج الطاقة المكبوتة ، ويتحرر الطفل من سجن الرعب الذى يعيش فيه ، وربما يتجاوز كل

المحاذير ، ومثل هذا الطفل ينشأ جبانًا ميت الضمير «يخاف ولا يستحيى» كما يقول المثل .

وخطورة مشكلة الخوف أنها تزرع «ضعف الثقة بالنفس» ، فاستبداد الآباء وإجبارهم لأطفالهم على الطاعة العمياء بزعم التأديب والتهذيب ؛ يجعل الطفل ضعيف الثقة بنفسه إلى حد بعيد ، فلا يستطيع أن يُثبِت ذاته فى أى دور من أدواره ، ويقل احترامه لذاته واعتداده بها ، وتنحدر شخصيته إلى أدنى مستوى .

إن الطفل بحاجة إلى تقديره وإثابته وتشجيعه على أى عمل يقوم به ، ويخطئ بعض الآباء والأمهات حينما يخاصمون أولادهم ولا يضعون اعتبارًا لوجودهم ، مهما يجيدوا أو يحسنوا .

ومن المشكلات الخُلقية التى تعوق صحة الطفل النفسية ويكون الثواب والعقاب سببًا فيها مشكلة الكذب ، وهى من المشكلات التى يكتسبها الأبناء ، ويكون الآباء هم السبب فيها أحياناً ، فالطفل الذى يقول لمن يسأل عن أبيه : «بابا غير

موجود» وربما سبقته براءته فيقول للطارق : «بابا يقول لك إنه غير موجود» . وهذا تدريب على الكذب وحينئذٍ يشعر الطفل بمرارة الظلم عند عقابه على الكذب فى أى أمر من أموره ، ويشعر أيضًا بغلظة الكبار وقسوتهم ، وهم الذين يستحلُّون لأنفسهم سلوكًا لا يسمحون له به .

ومن أسباب الكذب عند الطفل الخوف الشديد من العقاب ، خاصة فى الأسرة التى تعاقب دائمًا بالضرب ، فنجد مثل هذا الطفل يختلق كذبة جديدة ليبرر كذبه من قبل ، وهذا النوع من الكذب يُطلَق عليه الكذب الوقائى أو الدفاعى . ومن أسبابه أيضًا قسوة الوالدين ، وسوء معاملتهم لأطفالهم ، فقد يكذب الطفل على والديه فيدَّعى أن المدرس دائم الاضطهاد له ، ويضربه على أتفه الأسباب ، وهو بذلك يحاول أن يستدر عطف الوالدين ، ويجد لنفسه مبررًا لعدم نجاحه فى دروسه ، أو تأخره الدراسى .

ويخطئ بعض الآباء والأمهات كثيرًا حينما يعاقبون أطفالهم بعد اعترافهم بارتكاب السلوك الخاطئ ؛ لأنهم بذلك

يعاقبونهم على الصدق .

ومن أشكال الكذب - كذلك - الكذب العنادى ، وهو أن يكذب الطفل لمجرد السرور الناشئ عن تحدى السلطة (الأسرة أو المدرسة) خاصة إذا كانت شديدة الرقابة والحزم ، قليلة الحنو والعطف .

وينبغى أن يدرك الوالدان والمعلمون أنه لا جدوى من علاج الكذب بالعقاب والتهديد ؛ لأنهما ربما تسببًا فى أعراض أخرى أشد : كالسرقة ، ونوبات الغضب ، والتخريب ، والعصبية الزائدة .

كما أن التشهير والسخرية من الطفل الكاذب لهما أثر ضار على شخصية الطفل ، فإمَّا أن تحط من قدره ، وتهون من شأنه ؛ فيتدنى مفهومه لذاته ، وإما أن تزرع فى نفسه التهاون واللامبالاة وعدم الاهتمام .

وإذا ما تحدثنا أمام الطفل عن الصدق وأهميته ، فليكن حديث مودة وحب وعطف ، لا حديث نصح ووعظ وتأديب .

ومشكلة «السرقة» كسلوك مَرَضِي عند بعض الأطفال ، من المحتمل أن تكون من بين دوافعها شدة العقاب وقسوته والمبالغة فيه ، فقد يلجأ بعض الآباء والأمهات أو المدرسين إلى العقوبة التى تذل كرامة الطفل ، وهى إجباره على الاعتراف أمام الآخرين فى الأسرة أو المدرسة بأنه سارق خائن للأمانة ، وكذلك التشهير به ومعايرته .

وقد يكون الدافع عليها عدم الإثابة على الأمانة والتهاون فى تشجيع الطفل عليها .

ومشكلة العُقَد النفسية عند الأطفال تؤثر بأنواعها فى صحة الطفل النفسية ، وتمثل نوعًا من الخلل والاضطراب يطرأ على الشخصية ؛ نتيجة لعوامل ومُسبِّبات حدثت فى المراحل الأولى للطفولة .

ومن بين الأسباب العديدة المنشئة للعقد النفسية تأخذ أنماط الثواب والعقاب مكانًا سائدًا ، فالطفل الذى يُعامَل بالنقد المستمر والإذلال النفسى وأنه لا يساوى شيئًا ، ولا يسمع من الوالدين أو المعلمين كلمة إثابة أو تشجيع ؛ تتكوَّن لديه «عقدة

النقص» وما يترتب عليها من ذلة وخضوع ، وربما تأخذ شكلًا عكسيًّا فيُظهِر الطفل غرورًا زائدًا ، وربما تأخذ شكل أمراض أخرى ، كالتهتهة فى الكلام .

وما يُسمَّى بعقدة الأب ليس من الضرورى أن يكون سببها الأب دائمًا ، ولكنها تنشأ نتيجة للقسوة والصرامة المتَّبعة فى تربية الطفل ، سواء فى جو الأسرة أو داخل دور الحضانة أو المدارس ، ويترتب عليها قسوة الطفل على نفسه وانتقادها بشدة ، وكذلك قسوته على الآخرين ، وتمتعه بإبراز عيوب الآخرين .

و«عقدة الأم» تنشأ من التدليل الزائد ، وليس سببها الأم دائمًا ، وإنما قد تنشأ بسبب معاملة المعلمة أو الجد أو الجدة ، ومن أعراض هذه العقدة أن ينشأ الطفل اتكاليًّا أنانيًّا ، يُعامل نفسه كما تعامل الأم الضعيفة ابنها الوحيد .

و«عقدة الذنب» ، وهى فى مقدمة العقد التى يزرعها الآباء فى نفوس أطفالهم ؛ نتيجة التأنيب المستمر ، و العقاب على أتفه الأسباب بطريقة رادعة قاسية ، وتذكير الطفل بالخطأ الذى

ارتكبه وعُوقِب عليه بطريقة مستمرة ، ومن أهم أعراض هذه العقدة كراهية الذات ، والتهوين من شأنها ، والرغبة فى العقاب الذاتى بمعنى إيلام النفس وتوقيع العقوبة عليها ، والشعور بالإثم والخطيئة عند ارتكاب أصغر الأخطاء .

ولعلاج هذه المشكلات علينا أن ننظر إليها على أنها قابلة للحل وليست مستعصية ، وخاصة إذا استرشدنا بمنهج رسول الله ﷺ فى علاج مشكلات صحابته بقوله لصحابى أخطأ عندما نوى الصلاة وركع وهو على باب المسجد ومشى راكعًا حتى وصل إلى الصف ، فقال له النبى ﷺ : «زادك الله حرصًا ولا تعد» .

فالنبى ﷺ لم يبدأ بالنهى عن الخطأ ، ولكن مدح فيه حرصه على الركعة من أن تضيع ، ثم بدأ بالتوجيه .

لذلك على المسلم إذا أراد تنشئة طفله تنشئة إسلامية ، أن يجعل من رسولنا الكريم ﷺ قدوة وأسوة ، ومن كتاب الله منهاجًا وشرعةً فى حياته ، ويتمثل قول السيدة عائشة عندما سُئلت عن خُلق النبى ﷺ فقالت : «كان خُلقه القرآن» .